دور العقل

في الخطاب الديني

قراءة في نقد الذات

الدكتور
عبد اللطيف الهميم

دار عمار للنشر والتوزيع

دور العقل

في الخطاب الديني

قراءة في نقد الذات

محفوظة
جميع الحقوق

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
(٢٠٠٤/٧/١٥٧٩)

١٢٨،٣

الهميم ، عبد اللطيف

دور العقل في الخطاب الديني / عبد اللطيف الهميم .ـ عمان :
دار عمار ، ٢٠٠٤ .

(٩٦) ص.

ر. إ. : ٢٠٠٤/٧/١٥٧٩

الواصفات: الفكر الإسلامي // الفكر // العقل // المذهب العقلي // مدارس علم النفس/

تم إعداد البيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

رقم الإجـــازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر : ٢٠٠٤/٢/٣٢٧

دار عمار للنشر والتوزيع

عمّان - ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء - عمارة الحجيري
تلفاكس ٤٦٥٢٤٣٧ - ص.ب ٩٢١٦٩١ عمّان ١١١٩٢ الأردن

دور العقل في الخطاب الديني

قراءة في نقد الذات

الدكتور
عبد اللطيف الهميم

دار عمار للنشر والتوزيع

في البدء،

هذا البحث قد يبدو مختلفاً عن غيره من البحوث التي تتناول (دور العقل في الفكر الديني) وان كنت لا أتمنى له أن يكون مختلفاً.

في هذا البحث... لم اقف عند مصادر ولا عند مراجع ولم استوثق كثيراً وإنما اعتمدت على ما تحفظه الذاكرة وسنين من جهادي الفكري والاجتهادي.

وابتعدت قدر ما استطعت عن التقليدية والبدائية في الكتابة والعرض.. وأنا أحاول أن أقول... في هذه المجموعة من الأوراق - لمن يقرأ: خذ اقرأ مآسي العقل عبر القرون!.. وفي هذا البحث.. لم الجأ إلى طريقة الفصول والتبويب، أو إلى ما يعرفه الأكاديميون بـ(منهج البحث)، بل أردت أ ن اجتهد رأيي وأعرض وجهة نظري وأقبل رأي من يخالفني أناقشه عليه ولا ارفض دور الآخر.

والحق، فإن العقل في التفكير الإسلامي تعرض إلى إغفاءة طال أمدها زهاء تسعة قرون، واستمرت إلي أن عصفت بالعالم عواصف الحضارة الغربية فإذا بها تحرك كل ساكن وتثير كل كامن، حتى استيقظ على دوي عواصفها رهط من القادة الغيورين وبرز على ساحة الفكر ثلة من العلماء المتنورين داعين إلى نهضة الشرق بإنعاش العقل وإفاقته من غيبوبته وكذلك غربلة وتنقية التركة الفكرية الموروثة وإزالة ما علق بها من الرواسب الضارة، منادين في الوقت ذاته بإخراج الإسلام من قيود التراث إلى جسور المعاصرة ومن متاحف التأريخ إلى واقع الحياة، والعودة بالدين من جديد حتى يكون غضاً طرياً كما كان بدأ وكما كان على عهده الأول إبان تألقه في العصور الذهبية.

أؤكد هنا على هذا البحث قد يبدو في طريقة عرضه وأسلوب تناوله مختلفاً عن غيره.. ولم أكن أتمنى له هذا الاختلاف.

والله الموفق.. وهو وراء القصد

المؤلف

بغداد

mosque1@maktoob.com

هذا الحديث في هذه السلسلة من المقالات منهج جديد في عرض مشاكل قديم الفكر الإسلامي وفي حل مشكلات أشكلها مفكرون مسلمون جمدوا الفكر الإسلامي وسدوا أبواب تطويره وتحديثه ثم هي محاولة قد تتلوها محاولات إن شاء الله لإعادة تشكيل عقل مسلم يجمع بين العقل والنقل الظاهر والباطن والاجتهاد والتحرر لكنه: -

ليس عقل المعتزلة.

ولا نقل الحشوية.

ولا ظاهر الإخباريين.

ولا اجتهاد عوام المحدثين (بتخفيف الدال) وخواص المحدثين (بتشديد الدال).

ولا تحرر المدرسة الحديثة في الفكر الإسلامي.

انه تشكيل يحاول أن يحض ويحض على التفكير وهو مجمل نظرية لا يستحي الناسب أن ينسبها إليه إذا شاء وانى شاء، ومتى شاء..

(كل أحد يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا رسول الله ﷺ) (مالك/ ٣).

تتنازعني منذ سنين مشاعر وخوالج في هذا الفكر الإسلامي الجامد المجمد على أرضية باردة حيث نمنا وأدلج الناس ولم نحمد السرى عند الصباح وضعنا بين محنة العقل ومحنة النقل وأجدني أحياناً سامح الله أبا العلاء في بثه لمكنون سره إذ قال:

اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا حجى وآخر دين بلا عقل

وأقرأ كتب الكلام فأجد معارك وسط معارك وأقرأ كتب الفرق فيهولني ما فيها من مقالات الإسلاميين واختلاف فرق المصلين حسب تعبير الإمام أبي الحسن الاشعري وأقرأ كتب الاجتماع الإسلامي فأغلقها راثياً لطلبتي كيف سيأخذون رأيهم بين الرأي والرأي الآخر؟!

وأعود بقراءاتي لمفكري العصر الحديث من المسلمين و(مدعي الإسلام) و(منكري الإسلام) منذ ظهور جمال الدين الأفغاني يثوب (الراهب المصلح) وأشددها هاهنا على ثوب (الراهب المصلح) ليأخذ في أحضانه محمد عبده ثم ليتأرجح بينهما محمد رشيد رضا طوراً يشيد بهما في (تاريخ الأستاذ الإمام) وطوراً يعود (سلفياً) ولا أقول (وهابياً) في (المنار) ويزعم الجميع (هم) و(ومن تلاهم) التجديد ويزعمون الإصلاح . . ثم إذا فتشت ذلك كله لم تجدهم على شيء،

لـم ولـن تجـد تجـديـدا وإنمـا مطـلا وتمـديـدا

ولـم ولـن تجـد إصـلاحـا إنمـا تكـرارا وإلحـاحـا

وابتدأ شباب الأمة من المغرب إلى أقصى الهند يطلبون الإسلام وفكر الإسلام بعد أن آمنوا برسالة الإسلام وطبقوا فقه الإسلام، فإذا بزعماء الإصلاح في العصر الحديث (وهذا بالنص احمد أمين لهم في كتاب يحمل الاسم نفسه) يتأرجحون على حبال هي في ارتباطها بالإسلام أوهى من نسيج حبال بيت العنكبوت.

وقيل لنا ولهم أنها الصحوة فإذا بها السبات، وقيل لنا ولهم أنها الإصلاح، فإذا بها بح وصياح، وقيل لنا ولهم أنها التجديد فإذا بها التجميد.

(فضاع الناس بين غد وأمس) كما يقول المعري

وأنت تمد يدك باحثاً عن المعاصرين بعد أن يئست مسائل الخلاف بين القدماء رحمهم الله فماذا تجد؟!!!

- رجل يدعو إلى نزع حجاب المرأة ونقابها ومسايرتها للمرأة الغربية (قاسم أمين).
- رجل يدعو إلى ربوية البنوك الربوية ولا يستطيع التفكير بالربح الحلال في مصارف إسلامية بديلة عن تلك (محمد عبده).
- رجل يفسر الوحي المحمدي على أنه نتاج عبقرية واستعداد نفسي (محمد حسين هيكل باشا).

- رجل يدعو إلى نقد الأسلوب القرآني لاحتمال اللحن به والأخذ بدلاً عنه مسرحيات اليونان السمجة (طه حسين).

- رجل ينكر كل حقيقة تاريخية أخبر بها القرآن الكريم ويزعم وجود الأساطير فيه (محمد أحمد خلف الله).

- رجل يقضي حياته ليثبت أن المرأة في الإسلام مظلومة ظلماً شنيعاً (الطاهر الحداد).

- رجل يريد إصلاح الإسلام وفق منهج الإصلاح اللوثري (محمد إقبال).

- رجل ينكر جزئية مهمة في علوم القرآن هي النسخ ويثبت جزئية أخرى هي تناقض الفقه الإسلامي (محمود شلتوت).

- رجل يهاجم ويستهزىء بأنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام ويصفهم بكل ما يشين (سيد محمود القمني).

- رجل يهاجم هجوماً قذراً أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ويزعم أنها هي التي أتت بالإسلام من ابن عمها ورقة (خليل عبد الكريم).

- رجل يدعو إلى نبذ الفكر الإسلامي كله ونقده من دون تحفظ (محمد أرغون).

- رجل يدعو إلى إعادة بناء النص القرآني وإعادة صياغة مفهومه ويزعم أن الإسلام دين أرضي لا سماوي (نصر حامد أبو زيد).

- رجل يدعو إلى إعادة ترتيب القرآن وفق نزوله لا وفق هذا الترتيب الذي تواضع عليه الصحابة رضوان الله عليهم بتوقيفٍ من رسول الله ﷺ (محمد عزة دروزة).

- امرأة خَرِفة تدعو لإلغاء حدود الإسلام وتدعي أن الحج عادة وثنية (نوال السعداوي).

وتطول قائمة الرجال والنساء؟ ونحن مجبرون أن نعود «كي نهرب من هؤلاء (المفكرين المصلحين) ودعاواهم المخرجة في بعض أفكارها من الملة» إلى أئمة

معاصرين سوف أصفهم بما يعرفهم القارىء من دون أن أسميهم ثقة بفطنته.

- رجل يبيح لأمريكا قتل المدنيين في أفغانستان (؟).
- رجل يكفّر كل المجتمع العربي الإسلامي ويجعل مجتمعه المليء بدعاوى التسلف المزيف دار الإيمان (؟).
- رجل يعد (داعية العصر) لا يتورع عن الدعوة، إلى إعادة قراءة وكتابة المناهج الإسلامية التعليمية (؟). وتطول القائمة

وفي خضم هذا البحر المتلاطم والموج العارم نجد أنفسنا ضائعين في بحثنا عن فكر إسلامي يبتعد عن تجديد غريب وعن تجميد أغرب فلماذا لا يستطيع طالب العلوم الشرعية، أن يكون مفكراً مسلماً، بينما يستطيع أن يكون (إماماً) و(خطيباً) و(واعظاً) و(مرشداً) وقد يستطيع أن يكون محدثاً ومفسراً و(مجتهداً)!!!

إن مشكلة المشاكل في الفكر الإسلامي الحديث هي الخوف الممزوج بالجهل والجهل الممزوج بالخوف:

- الخوف الممزوج بالجهل في رهبة فقد التراث وقلة العلم به!!!
- الجهل الممزوج بالخوف في خشية التعلم والخوف منه!!!

وهنا أجدني أطرح أسئلة لن أجيب عليها (الآن على الأقل) وأتوقع من القارىء الواعي أن يجيب عليها بنفسه ليفهم نظريتي ويدركها ويتحقق بها ومن ثم يعلمها...

- لماذا لا نملك فكراً إسلامياً يبتعد عن إنشائيات فضائل الإسلام ويعالج واقع المسلمين في كوامن نفوسهم ونوازعهم الذاتية ويحلل علاقاتهم بالآخر؟
- لماذا لازلنا نعالج فيما يسمى الآن الفكر الإسلامي مشاكل عاشها المسلمون قبل عشرة قرون (تزيد ثم تنقص) فنرد على المرجئة والجهمية والمعطلة ونحلل فكر ابن سبعين وآراءه؟

- لماذا لازلنا لا نستطيع الفصل بين مباحث علم الكلام (القديم) ومباحث علم الفكر الإسلامي (الحديث) فنكتب في كتب الفكر الإسلامي تطبيقات نظرية (الدور والتسلسل)؟

- لماذا لا نملك الجرأة لنقول إننا لم نستطع تأسيس قواعد ثابتة محددة لفكر إسلامي ولتفكير إسلامي؟

وأجدني أستطرد هاهنا والحديث ذو شجون إلى أن أذكر أن كل من يزعم لنفسه صفة المفكر الإسلامي ويحمل لواء دعوة التجديد يعاني من خضوعه للتراث أكثر من خضوعه لعصره وتلك مشكلة كبرى، فالفقيه يجب ألا يخرج عن التراث الفقهي لأنه لا مجال لعصرنته (هل نعبث بالصلاة والعياذ بالله) والمحدث يجب ألا يخرج عن متون الأحاديث رواية ودراية إلا ليعللها، والمطبق لعلم أصول الفقه (منطق الإسلام لا منطق اليونان) يجب ألا يخرج عن قواعده التي اصطلح عليها أئمة هذا الشأن ولكن هذا سؤال نهاية الاستطراد والذي طال:

- لماذا يجب أن يعود المفكر المسلم إلي ما لن يجده في التراث ويحاول إيجاده بتعسف وتكلف فيعالج العلاقات الاجتماعية الإسلامية في الغرب مثلاً بطريقة فقهاء الأندلس قبل تسعة قرون أو بطريقة فقهاء ما وراء النهر قبل أحد عشر قرناً؟

- لماذا لا نفتح قلوبنا وعقولنا على هذا التطور العلمي المعلوماتي الهائل في عصر العولمة التي أحاطت بالعالم مثل وحش كاسر فنفكر بصوت عال كيف هو حال المسلمين وكيف يجب أن يكون المسلمون وماذا سنبقي لأبنائنا وأحفادنا وأحفادهم من فكر إسلامي يرتكزون عليه هم في تفكيرهم لعصرهم المستقبلي القادم فنكتفي بقشور الحضارة ونترك لبها؟!!!

وأجدني أستطرد ثانية لأقول إن غاية أمر بعض المفكرين المسلمين المعاصرين أن فتحوا لهم مواقع على شبكة المعلومات العالمية (الإنترنت) ليزاروا من خلال الدخول فيها فماذا قدموا من فكر إسلامي معروض في مواقعهم؟

سأنقل هنا بعض العناوين في موضوع أحداث الحادي عشر من أيلول وطريقة التفكير الإسلامي فيها:

- هذه الضربات من فعل أطباق طائرة...

- أسامة لم يفعلها أبداً لأنه مسلم متدين!!!

- هي فتنة نصرانية - فتنة يهودية!!!

- الماسونية العالمية فعلتها وألصقتها بالمسلمين!!!

- لم تحدث التفجيرات بل هي خداع بصر لضرب المسلمين!!

وهذه العناوين فقط من مواقع مثل (المسلمون) (إسلامنا) (النداء) ومن كتب هذه المواضيع ممن يظن أنه مفكر إسلامي كان الأولى به أن يستحي من تفاهتها!!

- لماذا نخلط بين الفكر الإسلامي وعلم مقارنة الأديان؟

أخشى أن هذه المقدمة طالت واستطالت ولكن واقع الفكر الإسلامي اليوم إذا رأيته:

رأيت الذي لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر

مسلمون محاصرون في العراق ويتعرضون إلى عدوان اميركي في كل يوم، والمفكرون المسلمون لا يهتمون بهم بقدر اهتمامهم بحجاب الممثلات التائبات؟!!

مسلمون يذبحون في فلسطين ويؤسرون وينفون ويهجرون ويستشهدون ويفدون الإسلام بأرواحهم لله جل جلاله، والمفكرون المسلمون مشغولون: هل هؤلاء منتحرون أم استشهاديون؟!!

مسلمون يقتلون في الجزائر باسم الإسلام وتغتصب نساؤهم، والمفكرون المسلمون مشغولون بأمراء الجماعات الإسلامية هناك: هل هم مسلمون أم غير مسلمين؟!!

مسلمون أضاعوا هويتهم في الغرب واندمجوا هناك كلياً والمفكرون مشغولون بالرد على اليهود والنصارى؟!!

وبعد،

فالفكر الإسلامي المجدد الجديد الذي نريده وندعو إلى تأسيسه وتقنينه وجعله علماً يدرس وينشر لا يمكن أن يستقيم في نفسه إذا ما ظل أسير هذه القوالب الجامدة من تحجر العقل وتحجير الروح، فهل يمكن لنا أن نتج فكراً إسلاميا حديثاً معاصراً إذا اعتمدنا على آراء مستشرقين مثل (جب) و(شاخت) و(روبنسون) و(برك) و(جولدزيهر) و(برنارد لويس) وإذا اعتمدنا مقولات تلامذة مستشرقين مثل (لويس عوض) و(هشام جعيط) و(عبد المجيد الشرفي) و(فاطمة المرنيسي) أو إذا اعتمدنا على من نتصورهم إسلاميين في الفكر والتفكير مثل (أمير علي) و(محمد إقبال) و(أبو الكلام آزاد) و(محمد الغزالي) و(فراس السواح).. لا أظن ذلك.

فالفكر الإسلامي الذي ندعو إليه لا يمت إلى أي واحد من هؤلاء بصلة، لأن لكل من هؤلاء من الآراء ما يبعده عن تحقيق تجذير الفكر الإسلامي، ومالي أبحث عن فكر إسلامي لدى هؤلاء ولا أنتجه بنفسي مع علماء يجمعون بين الفقه والفهم والعلم والحكم ويضمون ظاهر الشريعة إلى باطنها فلا يتشددون تشدد (ابن حزم) و(البربهاري) ولا يتساهلون تساهل (جهم) و(الجعد) ولا يفرطون تفريط (ابن سبعين) و(العفيف التلمساني) ولا يؤاخذون في فلسفتهم بما يوهمون من أقوالهم مؤاخذة (ابن باجة) و(ابن طفيل) و(ابن رشد)، بل هو فكر يبين الإسلام ومشكلاته ومعالجات مشكلات الإسلام (اليوم) وأكررها مثنى وثلاث ورباع (اليوم) ثم هو فكر يأخذ من هذا العلم المسمى الآن باسم (علم المستقبليات) فيكون من باحثه (مستقبل الإسلام والمسلمين) وهو فكر يعالج ويخبر بالمرض ويصف الدواء (فالقلبُ أعلم يا عذولُ بدائه) كما يقول أبو الطيب المتنبي..

ثم هو فكر ينبذ الآراء التي لا تصب في مصلحة الإسلام والمسلمين في الماضي والحاضر والمستقبل ولا يجامل ولا يداهن ولا يماري ولا ينافق قط.

إن الفكر الإسلامي الحديث الذي أريده وأقول به، هو الفكر الذي يجنب شباب الأمة (الملتزم) ان يقع في شراك وأشراك جماعات تصف نفسها بالإسلام وتظن أنها بفكرها (الإسلامي) هي وحدها التي تمثل المرجعية بأميرها أو زعيمها فيجد الشاب المسلم نفسه هنا في ديار الإسلام أو هناك في ديار الغرب وهو لا يفقه من الإسلام إلا تكفير المجتمعين الإسلامي والغربي مرتديا جلباباً أبيض مطلقاً لحيته مصعراً خده ثاني عطفه متفيهقاً بنفسه فيشوه الإسلام باسم الأصولية)؟!!

ملاحظة في سياق الحديث والحديث طويل.. إن مصطلح الأصولية الذي غدا يطلق على الأشخاص والجماعات ويراد به من يتمون لتيارات الإسلام السياسي هو مصطلح خاطىء لا يجوز القبول به لسببين:

السبب الأول: إن كل مسلم يتمنى العودة إلى الأصول الأولى الإسلام في القرون الثلاثة الأولى.

السبب الثاني: إن (الأصولي) في تراث العرب العلمي وفي تراث المسلمين هو المهم حصراً وتحديداً بعلم أصول الفقه.

إن هذا كله (مما عرضته في هذه المقدمة المقتضبة) جدير بأن يكون في البال عند إرادة البدء بإنشاء فكر إسلامي نواجه به تحديات الحادي عشر من أيلول التي آذت الإسلام والمسلمين.

إن قسوة عرضي التي لا أعتذر عنها ولا أخجل منها، إنما ظهرت لما آلمني من وضع فكر هذه الأمة التي كانت عزيزة يوم كان أبناء الأمم الأخرى في جزرهم وخلف بحورهم وجبالهم يأكلون اللحم نياً ولا يتورعون عن محرم والأمر لله سبحانه.

ثم ماذا بعد؟.

لقد حاولوا أن ينتجوا فكراً إسلاميا بنيات مختلفة غير أن ذلك كله لم ينتج فكراً إسلامياً يمكن الاعتماد عليه بل أنتج شيئاً هو خليط من التفكير والحديث والفقه والفلسفة والكلام سمي مجازاً لا حقيقة بالفكر الإسلامي الحديث وهو أبعد شيء عن

الفكر الإسلامي الحقيقي!!!

وأجدني على أطلال الفكر الإسلامي الحديث أردد قول مضاء الجرهمي:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بل نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر

أو قول الآخر:

في كل جيل أباطيل يدان بها فهل تفرد يوماً بالهدى جيل

وما ذلك إلا لعظم خوفي على الفكر الإسلامي تمثلاً بحديث رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم: «من أصبح ولم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم».

إن هذه المقالات محاولة فيها اجتهاد مجتهد فإن أصبت ففضل الله عز وجل وإن أخطىء فحسبي أجر الاجتهاد.

على أنني راض بأن أحمل الهوى وأخرج منه لا عليّ ولا ليا

وأردد في خاتمة هذه المقدمة قوله تعالى ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

(٢)

بادىء ذي بدء أقول بأن الموقف من حجة العقل وعلاقته بأصلي التشريع وهما القرآن والسنة، كان من أهم القضايا التي اختلفت وجهات النظر منذ أن جاء الإسلام بمنهجه العظيم، مقيماً ذلك على إتمام مكارم الأخلاق منتدباً العرب أمةَ حملِ الرسالة التي هي (خير أمة أخرجت للناس).

ومن الطبيعي أن يحدث استقطاب حول أي من المحورين.. العقل أم النقل فيما قبل الإسلام؟ ولكن أن يحدث استقطاب حول أحدهما ويترك الآخر فهذا مما يتعارض مع منهجية الإسلام بشكل عام في الوسطية والشمول والتكامل.

وعلى هذا النحو اعتبر الإسلام العقل مناطاً للتكليف، فإذا أخذ ما وهب سقط ما وجب، إذ أعد الفقهاء العقل أوّل شروط التكليف للمسلم في العبادات والمعاملات وغيرها من تعاليم الإسلام. فقد جاء القرآن الكريم في أولى آياته التي نزلت على سيدنا محمد ﷺ يقول: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥]، والقراءة في معناها الأعم الأشمل تعني إشغال القوة العقلية واستثمارها في جميع جوانب التنمية كما جاء في الحديث الشريف أن النبي الكريم ﷺ قال: (أول ما خلق الله تعالى القلم) فكان خلق القلم أولاً إشارة واضحة لتشكيل عقلية المسلم على أساس علمي ومنهجي.

إن القرآن الكريم عندما يؤصل منهجية البرهان بذلك قد وضع العقل في مكانه الطبيعي والحقيقي والفاعل بتشغيل ماكنته لا تعطيلها، فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١١١] والبرهان بعد ذلك هو دليل الصدق حتى لو انطلق من الخصم.

وكان القرآن الكريم معجزاً في كل شيء إذ احترم آراء الآخرين حتى إذا ردّها، فالرد بالحجة لا بالتعسّف، وعندما يخاطب القرآن الكريم بني الإنسان فإنه يذكرهم

بسبب الخطاب وهو العقل فتارة يخاطبهم بـ ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، وأخرى بـ (أولي النهى) وأخرى منكراً على من عنده قلبٌ لا يعقل به (لهم قلوب لا يعقلون بها)؟ فكأنهم أهملوا هذه النعمة العظيمة وهي نعمة العقل، التي جعلها الله تعالى سبباً لاستجلاب الخير ودفع الشر.

ولقد ضرب القرآن الكريم مثلاً بالذين تمكنوا من وسيلة الفهم إذ منّ الله عليهم بمادة هذا الفهم، وهي العلم، ولكنهم أهملوها، إما بعدم تحويلها إلى منهج عن طريق العقل، أو بعدم العمل بها وذلك بحسب قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

أما الأنبياء والمرسلون، فقد استخدموا آيات الله تعالى المبثوثة في الكون المخلوق كوسيلة لإقناع الناس بتوحيد الله تعالى وعبادته حق العبادة.

ومن أروع الأمثلة على هذه المنهجية التي ذكرها الباري عز وجل في القرآن الكريم كمنهج تأس واتباع، هو ما حصل بين النبي ابراهيم عليه السلام والنمرود، حيث جاء في محكم الكتاب ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة: ٢٥٨].

وهنا حيث استخدم العقل الذي يدل على أنّ سنن الكون ثابتة، وهي بيد القادر الأزلي ومنها إتيان الشمس من المشرق، وهو فعل منسوب لله تعالى، فمن ادعى الألوهية وجب عليه أن يقوم بمستلزماتها من خلال خرق القانون الكوني بقانون آخر، وبما أن النمرود لم يكن إلهاً إنما هو زاعم للألوهية فإنه انهزم أمام الحجة والبرهان التي أقامها الموحدون والحنفاء.

ويلاحظ أن القرآن الكريم عَدَّ آيات الكون والخلق حجة على العقل السليم في نهج منهج التوحيد، فقد جاء في سورة آل عمران قوله العزيز: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] والآيات هنا هي الحجج الدامغة على أهل العقول الراسخة، حيث أن الكون المخلوق وهو خلق الله لا يتعارض مع الكون المقروء وهو علم الله المتمثل بعضه في (القرآن الكريم)، والإنسان كائن عاقل مستخلف إذ الخلافة دليل التميز وعلامة التميز العقل فعندما وجه الملائكة الكلام إلى الله تعالى بسؤالهم في القرآن الكريم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، ثم كان جواب الخالق سبحانه عملياً ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ . . ﴾ الآية.

ولعلّ تعليم الأسماء هو التدريب الأول لعقل الإنسان في تعرّفه على ما حوله لغرض فهمه والتعايش معه، ولا يمكن للعقل أن يتعايش مع مخلوقات ومكونات يجهلها ولا يعرف دورها.

لقد تفجر الخلاف الأول والأهم بين المسلمين والمشركين بسبب اقتفاء المشركين آثار الآباء ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، باعتبارهم ألغوا عقولهم أمام ما كان من واقعهم الاجتماعي المنحرف، أما منهج مخاطبة العقول السليمة فهو منهج أحياه سيدنا محمد ﷺ منذ يوم الدعوة الأول.

والقرآن الكريم مليء بالآيات الكريمات التي تنتقد من يلغي العقل أمام ميراث لا يرتبط بالوحي، فقد جاء في محكم الكتاب قوله العزيز ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١]، ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ [الأعراف: ٢٨].

لا بل إن القرآن الكريم انتقد منهج التقليد الأعمى للآباء الذين هم على ضلالة وكفر وشرك وجاهلية ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦]. ثم كان جواب القرآن الذي يسفّه هذه الطريقة التي لا توصل إلى نتائج سليمة بقوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

أما استدلال ابراهيم الخليل عليه السلام بظواهر الكون على الخالق ووجوده وحقه في العبادة فقد جاء في كتاب الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥-٧٩].

لقد كانت هذه الآيات الكريمات أروع طريقة منهجية في التوصل إلى معرفة الخالق عن طريق التفكر في خلقه إذ كان إبراهيم عليه السلام يريد أن يتوصل إلى الخالق الباقي الدائم، الذي لا يزول ففتش في الكون، وعندما أرخى الليل سدوله كان ضوء القمر متلألئاً في حالكات الظلام وهو ينير الدروب والمسالك، ولكن تعلّق إبراهيم عليه السلام بهذا المظهر الكوني لم يدم إلا ساعات معدودات فزالت فكرة اعتبار هذا المظهر إلهاً يعبد لأن عقل إبراهيم كان يفتش عن الذي لا يزول ولا يتغير ولا يتبدل، بل كان يفتش عن الدائم الباقي، وهنا صدح إبراهيم بالحقيقة بأنه لا يحب الآفلين، وهم الزائلون، فكان لا بد أن يستمر في البحث، فكان بزوغ الشمس بعد القمر آية عظيمة نشرت أشعتها على هذا الكون الفسيح، فتحرك الناس للعمل، وانتشرت المخلوقات في المراعي والحقول، وسبّحت كل الخلائق، ولكنها لم تكن تسبح للشمس، بل كانت تسبح لله العظيم الخالق، فصدح إبراهيم ببراءته من الشرك وتوجهه إلى الله الذي فطر وخلق السموات والأرض.

وللتأريخ فقد كانت أمة العرب أمة عقل وإبداع وأدب، فكان العربيّ يقول الشعر ارتجالاً على الفطرة، حتى أن القرآن عندما تحدى مشركيهم تحدّاهم بما هم به أهل الخبرة والاختصاص وهو وعلى هذا النحو، كان المشركون يستعجبون من حلاوة وطراوة القرآن الكريم وهو يرطب القلوب في مكة، ويزلزل الحجر من تحت أرجل قوى التقليد والصنمية والعبودية لغير الله تعالى، بل إنه تحداهم في مواضع منها ما ورد

في سورة البقرة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]، فأحسّ فصحاء وبلغاء وشعراء العرب أن هذا أمراً غير ممكن الإتيان به، وشعروا أن وراء كلمة لا اله إلا الله محمد رسول الله منهجاً يتعلق بالله تعالى عبودية وبسيدنا محمد ﷺ اتباعاً وسلوكاً.

أما السنة النبوية فهي منهج دعوة للعقل بأخذ دون المتكامل، ولعل من الشواهد المهمة ما حدث في غزوة بدر الكبرى يوم عسكر الجيش الإسلامي بعيداً عن الآبار، فكان ذلك مثار تساؤل من قبل صحابي جليل هو الحبّاب بن المنذر، عندما سأل النبي الكريم ﷺ قائلاً: (أهو منزل أنزلك الله إياه أم هي الحرب والمشورة والمكيدة؟ فكان الجواب من الرسول الكريم ﷺ: بل هي الحرب والمشورة والمكيدة. فكان ذلك بمثابة فتح باب كبير من لدن الرسول الكريم لصحابته في تشغيل عقولهم بما ليس فيه وحي، أما إذا كان هناك وحي نازل فمنهجية الصحابة وجميع الصادقين هي الاستسلام واليقين، وعلى ذلك قال الحباب: يا رسول الله لنعسكر عند البئر فنشرب ولا يشربون ونسقي ولا يسقون) فكان هذا عاملاً من عوامل انتصار المسلمين وهزيمة الكفار، وهو سيطرتهم على الماء، وهذا يمثل فائدة تعبوية كبيره في وقت كانت الوسائل فيه بكل تلك البساطة.

ويوم بعث النبي الكريم ﷺ الصحابي الجليل معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن اختبره النبي الكريم قائلا: بم تقضي؟ قال: بكتاب الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: فبسنة رسول الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو). بمعنى أن يكون الاجتهاد بناء على مناطه حكماً شرعياً مقراً من الرسول الكريم وهذا ما يجب أن يتصف به القادة وأهل المعرفة وذلك بالاجتهاد والقياس على أصل مقاس عليه بعد معرفة العلّة الجامعة بين الأصل الشرعي والواقعة المطلوب بيان الحكم الشرعي لها، ومعروف أن ليس ثمة اجتهاد دون عقل ناضج.

ومع أن النبي الكريم عليه الصلاة والسلام كان كما جاء في القرآن الكريم ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾، فإنه مع ذلك لم يعطل دور عقول صحابته

فقد كان يستشيرهم في الأمور المهمة، وجاء القرآن الكريم يوضّح منهجية الشورى بوصفها حق للرعية على الراعي، والقائد هو الذي يبادر إليها، وليسوا هم الذين يبادرون إليه، وذلك وفق قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ومن هنا فإن صحابياً جليلاً بلغ به حب رسول الله أن يفقد صوابه بعد موت الرسول الكريم حتى قال: من زعم أن محمداً قد مات قطعت عنقه بهذا السيف.. لقد ذهب يناجي ربه كما ذهب موسى يناجي ربه.. حتى سمع أبا بكر الصديق يتلو على الجميع قول الله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ.. ﴾ [آل عمران: ١٤٤] وساعتها قال عمر: فما أن تيقنت أن رسول الله قد مات حتى سقطت على الأرض وما عادت تحملني رجلاي...

أريد أن أقول أن هذا الرجل مع حبه الشديد للحبيب المصطفى ولكنه ناقش النبي الكريم ﷺ في سبعة عشر موضعاً جاء القرآن الكريم يؤيد قولَ عمر فيها جميعاً ومنها الموقف من أسرى بدر، والصلاة على المنافقين، مما ليس هذا موضع تفصيله. أما اجتهاد عمر رضي الله عنه في محضر الصحابة فقد كان مما يكتبُ بماء الذهب ومن اجتهاداته رأيه بعدم توزيع سواد العراق بين الفاتحين بوصفها أرض العراق الغنية فأرادها عمر خزيناً للأجيال اللاحقة وقد كانت واحتج بقوله تعالى: ﴿ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ ﴾ [الحشر: ٧]، وبالفعل فقد أقنع عمر جميع الصحابة برأيه، وحقق مقاصد الشريعة وحماية المجتمع بشكل كامل، بوصف أن الإسلام جاء لتحقيق سعادة ورفاهية المجتمع أجمع، ولم يأت لتكديس الثروات في يد مجموعة من ابناء الأمة حتى لو كان هؤلاء هم الفاتحون أنفسهم.

إن الإسلام بمنهجه العام قد وضع القواعد وبنى أصول المناهج وأرسى النظم العامة وترك التفاصيل للاجتهاد، الذي يحقق المصلحة الشرعية على قاعدة: أينما توجد المصلحة فثَمّ شرعُ الله. ونحن عندما نتطلع إلى السيرة النبوية الشريفة نجد الرسول الكريم ﷺ وهو يحث صحابته على الاجتهاد ولا يجبرهم على القول طالما في الأمر

سعة ويسر (فما خُيِّرَ النبيُّ الكريم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً).

لقد كانت هذه المنهجية واضحة المعالم عندما أرسل النبي الكريم ﷺ صحابته رضوان الله عنهم لإجلاء بني قريظة قائلاً لهم: (لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة)، وذلك بعد أن نقض اليهود العهد والميثاق، وفي طريق الرحلة تحقق وقت صلاة العصر فتوقف جمع من الصحابة للصلاة محتجين بقول النبي الكريم ﷺ: (من فاتته صلاة العصر فقد حبط عمله)، أما قول النبي الكريم فقد فهموه أنه لا يعني ترك صلاة العصر وعدم صلاتها إلا بعد إجلاء بني قريظة وإنما أراد النبي الكريم دفعهم ورفع درجة الاهتمام القصوى لديهم بتحقيق هذا الهدف الاستراتيجي المهم.

أما الجمع الآخر من الصحابة فلم يصلّوا العصر إلا بعد إجلاء بني قريظة محتجين بظاهر النص.. ويوم رجعوا إلى الرسول الكريم ﷺ أقرّ الفريقين وكان ذلك دليلاً واضحاً على احترام الإسلام الاختلاف والتنوع واحترام الرأي، وقد كان هذا مع رسول الله فكيف بمن كان علمهم بعضاً من علمه الشريف.

وإلى هذا الحد سارت سفينة الإسلام، ففتح العرب والمسلمون الغرب والشرق، حتى بنوا لله تعالى مساجد على مقربة من باريس وجوار القسطنطينية وفي مجاهل افريقيا وأواسط آسيا، إذ كانوا يفهمون الإسلام فهماً واقعياً عملياً، إلا أن الإسلام الذي هو منهج كل المراحل والأزمان والأمكنة كان لا بد أن تكون له استجابات متنوعة أخرى، تواكب المرحلة وتعالج التحديات، فكانت التحديات في عهد الخلافة الراشدة تحديات بناء المؤسسات ونشر الإسلام عبر حركة الفتح والجهاد.

أما المرحلة الثانية، فقد كانت جل اهتماماتها متعلقة بهذا الكم الهائل من التنوعات الإجتماعية والقومية والدينية بما تحمله من رواسب كبرى اصطحبتها الأقوام التي اعلنت إسلامها ودخلت في الدين افواجاً، فقد دخلت أقوام تحمل رواسب المجوسية وأخرى تحمل رواسب الروم وأخرى تحمل الرواسب الفرعونية ورابعة تحمل الرواسب اليهودية، فكان عدد الداخلين في الإسلام أكثر بكثير من الكم النوعي الذي تربى في العهد الأول تربية نوعية إيمانية. أضف إلى ذلك فإن الدولة الإسلامية كانت

تشعر بأنها حلقة الحضارة في حينها لذلك فقد أنشأت الجامعات والمستشفيات ومراكز الفلك، بما يصح أن يسمى اليوم مختبرات التطوير العلمي والتكنولوجي.

ومن هنا.. فإن المأمون عندما أمر بترجمة العلوم والمناهج إلى الأمم الأخرى فإنه كان يهدف بذلك إلى أن تمسك الأمة المسلمة بزمام القيادة، وأن تعرف ما عندها وما عند غيرها، حيث أن هناك مفاصل في جسد الأمة تحتاج إلى استعارة أدوات ومناهج الآخرين. حيث كانت أمتنا قد سارت بقوة ومنهجية في مثل هذا البناء وخاصة في المنهج التعليمي، الذي كان عبارة عن عقيدة سمحة بسيطة معروفة الثوابت، محددة المتغيرات، فأدى إدخال الوسائل الجديدة إلى توسيع حجم المتغيرات، التي تحولت في عقول جمهرة من طلبة العلم الشرعي إلى ثوابت وغايات تسال الدماء من أجلها، وتسطر الكتب والموسوعات في سبيل بيان أحقيتها.

لقد كانت الفلسفة الإغريقية بمختلف مراحلها، وعند كبار دعاتها ومنهم أرسطو وأفلاطون وأفلوطين عبارة عن حاجة اجتماعية وفكرية وعقلية واقعية وفطرية، وذلك بغياب الوحي والدين والمنهج حيث تعني كلمة الفلسفة (حب الحكمة) بينما جاء الشرع الشريف بتعليم آيات الله والحكمة بأوسع ما يكون التعلم.

نعم إننا من القائلين بمنهج فلسفي إسلامي، ولكننا نقول به بما لا ينافي الشرع، بل يكون أداة للفهم مع أننا نفصل في القول بين جانب الغيبيات التي حسمَ الأمر فلا اجتهاد في موضع النص وبين جانب المشاهدات التي يطل فيها العقل والفلسفة والمنطق.

إننا اليوم كمسلمين أمام تحديات كبيرة وخطيرة ونحن ندخل الألفية الثالثة.. أليس من العجيب أن يصل الغرب بعد استخدامهم السنن الكونية إلى اكتشاف الخارطة الجينية التي ستكون لها أبعاد مذهلة على المستقبل الإنساني، ونحن نتجادل إلى اليوم هل لا يزال باب الاجتهاد مسدوداً أم أنه مفتوح.

والحقيقة فقد تقدم الغربيون عندما استخدموا عقولهم وتحمل كل منهم مسؤولية اختياراته، بينما يعيش الجمهور المسلم بمن فيهم المتعلمون على التقليد الذي يقتضي تعطيل عقولهم بما يؤدي في النهاية إلى هدر هذا الكم الهائل من الطاقات العقلية، التي كان يجب أن تستثمر في البناء والتنمية وليس في الانهزامية والضعف.

أو لم يكن سبباً في إسلام جمهرة كبيرة من علماء الغرب بعد أن توصلوا إلى تطابق آيات القرآن الكريم مع حقائق العلم، وهذا يعد من النجاحات الهائلة التي حققها الفكر الإسلامي الحديث، ويمكن لهذه المنهجية أن تأتي بالخير الكثير لو كانت تسير في منهج مرسوم.

ثم إلى أين من هنا؟

وماذا أريد أن أقول في نهاية هذا كله؟.

إن مما يذكر عن أحد أسباب دخول الاستعمار، وتمكنه في اليمن أن أهل اليمن كانوا يعتقدون بأن من يمرض فعليه أن يأكل من تراب قبر الشيخ، بينما كانت الإرساليات الاستعمارية تنشر مراكزها التعليمية والطبية في كل أرجاء اليمن، فكانت النتيجة واحدة لليمن وبقية البلدان الإسلامية، وهو ما حصل أيضاً للدولة العثمانية التي اصبح الفاصل بينها وبين التكنولوجيا والعلم في العالم الآخر كبيراً وهائلاً انتهى ذلك بهزيمتها في الحرب العالمية الأولى.

فأين نحن من العقل ونحن نتخطى أعتاب الألفية الثالثة؟.

إنني أردت أن أتساءل.. وأحاول الجواب في الآتي من السطور.

(٣)

لعل من حكمة الخالق سبحانه أن ينزل القرآن الكريم بحسب تتابع الحوادث، كما جاء في قوله العزيز: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

واللافت للنظر أن القرآن الكريم وعبر (١١٤) سورة جاءت فيه فإنه لم يختلق حدوث مشكلة ليبحث عن حل لها، بل إن المشكلة كانت قائمة بذاتها.. ومن ثم فإن القرآن الكريم يعالج.

ماذا أريد ان أقول..

أريد أن أقول إن لكل عصر رجاله وفلسفاته وأحكامه، ومن الظلم أن لا ندرك هذه العناصر عندما نريد أن نقرر حكماً في قضية من القضايا التي تكون موضع جدال وخلاف.

التاريخ هو الدليل.. وعندما نعود إلى الماضي فإننا نعود إليه بالفكر، لا بالجسد حتى لا نقع في خطأ يميل معه الميزان أو تختل به خطوط الحدود.

نفكر ونتأمل بفعل المضارع أي في ما هو قائم الآن، وبفعل المستقبل أي في ما هو محتمل غداً، وليس فقط بفعل الماضي أي ما جرى فعلاً وكان.

وعلى هذا النحو، فإن من أفدح الاخطاء أن نلقي أحكامنا ارتجالاً في محاكمة الرجال والأفكار التي سبقت قبل هذا اليوم، بعيداً عن مراعاة ما أحاط بهم من ظروف وأحوال.

وأجد - بهذه المناسبة - أنه لمن الضروري أن تسعى الأمة إلى تشغيل الفكر وتقليب وجهات النظر وتعيد حسابات الماضي وأن تتعامل مع واقعها في ضوء الوحي الإلهي والهدي النبوي أمام تحديات خطيرة وكبيرة يفرضها هذا الواقع، الذي يريد للأمة

نوعاً من الاسترخاء الفكري والتراجع واللامبالاة.

ولست أتردد عندما أقول أنه لولا القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة لدخلت هذه الأمة في متاهات فكرية وضاعت وسط هبوب العاصفة، وأسدل عليها الستار إلى الأبد.

لكن من رحمة الله سبحانه بأمتنا أن نهض الخليفة الراشد أبو بكر الصديق رضي الله عنه فابتدأ بجمع المصحف الكريم مع أنه كان محفوظاً في القلوب.. لكن ربما تأتي من بعدها قلوب تتغير، ومن هنا أخذ زيد بن ثابت رضي الله عنه بأمر التكليف فجمع القرآن الكريم، وليبقى هو ذلك الكتاب الخالد إلى يوم الدين.

وتمضي السنون.. وتنتهي مرحلة الخلافة الراشدة، لتبدأ مرحلة خلافة جديدة.. ويلتفت الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى الحديث النبوي الشريف، فينتدب إلى جمعه وتبويبه وتدوينه الإمام الزهري، ليقطع من خلال هذا التدوين الطريق على الذين افتروا على رسول الله ﷺ أحاديث لم يقلها، ولا أنزل الله بها من سلطان.

وللتاريخ، فإن العصر الاموي قد شهد ازدهاراً فكرياً وتطوراً في خط التقدم الحضاري وانفتاحاً على المجتمعات التي تداخلت علومها وفنونها وثقافاتها مع المجتمع العربي الإسلامي، ليكون هذا التداخل هو السبب وراء التمهيد إلى قيام الترجمات في العصر العباسي والتي توسعت بشكلها الكبير في عهد الخليفة المأمون.. وبالتالي فقد حصل نوع مما يمكن أن نسميه بالارتباك الثقافي والفكري عند المسلمين؟

وهنا - وأقولها بألم - وقعت الواقعة.. وتقاطعت الأفكار.. وتداخلت الرؤى، والألوان.. وحصلت الضبابية التي حجبت الرؤية السليمة الصحيحة.. وبالتالي كان العمى!

إنني أريد أن أكون واضحاً ضمن قناعاتي.. واضحاً ضمن المنهج الذي أؤمن به، فقد حاول الفلاسفة - إذا كان يمكن أن نصطلح عليهم بهذا الاسم مجازاً - التوفيق والتقريب والمزاوجة بين الفلسفة الإسلامية من جهة، وبين الفلسفة الاغريقية من جهة

أخرى، إلا أنهم - ولوجه الحق أقول - لم يفلحوا!

وكان بين الذين حاولوا وحاولوا وحاولوا.. هو أبو الوليد بن رشد، الذي شرح لأرسطو كثيراً حتى سمي بالشارح.. وكانت من أبرز محاولاته للتوفيق بين الشريعة والفلسفة هو كتابه (فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال).

وللإنصاف.. فإن ابن رشد كان جريئاً في مواجهة الواقع، إيجابياً في تفاعله مع متغيراته.. استطاع أن يحرك بما امتلك من مواهب فذة المياه الراكدة، ويبلور منهجه الجديد في الجمع بين الحكمة والشريعة والتوحيد بين العلم والفكر والعمل، ويؤكد المنحى المقاصدي للدين في تشريعاته العادلة.. إلا أن هذا الرجل قد واجه ظلماً كبيراً في حياته، وكان أن ظلم بعد مماته أكثر من ظلمه في حياته.

والغريب أن هذا الظلم قد جاء بسبب عدم قبول الآخر، أو عدم وضوح المنهج، بالنسبة إلى كثيرين ممن كانوا يمثلون (الخط الديني)، مدفوعين إلى ذلك تحت الإعتقاد بالتعارض بين (العقل والقرآن)، وهو اعتقاد غير عقلاني وغير صحيح، ولست أدري بأي منطق يمكن توصيف هذا الاعتقاد، الذي ساد منذ القرون الأولى.

وإنه لمن الحمق أن يقال بمثل هذا التعارض.. لأننا نستطيع أن نستبين وعبر آيات القرآن الكريم كلها دعوة الحق سبحانه إلى العقل في أكثر من موضع ونص بقوله: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾.

وهنا يثور سؤال، أو أنها أسئلة تثور:

لماذا لم يؤثر إبن رشد في الفكر المحلي في الشمال الافريقي؟

ثم.. لماذا لم يؤثر في الفكر الإسلامي اللاحق؟

أليس من المحزن أن يموت فكر ابن رشد سنوات طويلة بل، وقروناً، لا أحد يتذكره، أو يلتفت إليه، حتى إذا اكتشفه الاوروبيون والمستشرقون.. رحنا ندق من حوله الطبول، في مهرجان أشبه بليلة الزفاف؟

والحقيقة فقد عاش ابن رشد حياته غريباً وسط أهله ومجتمعه، وتعرض إلى محن قاسية، بينها عزله عن وظيفته.. وبينها إحراق كتبه.. وبينها نفيه عن بلده.

والغريب أنه - وسط هذا الاغتراب والتمزق - فإن الغربيين والفكر الغربي دان له بالفضل.. لا بل، إن الغربيين لم يستطيعوا إنكاره، وظلت آراؤه منهجاً للدراسة في جامعاتهم طوال أربعة قرون، وانقسم حوله فريقان: مناصرون ومخالفون، أما المناصرون فقد عرفوا بإسم: (الرشديون اللاتينيون).

ونعود - مرة أخرى - إلى السؤال الملحاح: لماذا يدان لابن رشد بالفضل في الغرب؟ ولماذا يعاقب في بلاده؟

هل هي أزمة الفكر والمفكر؟ أم أنها أزمة التوفيق بين منهج الدين ومنهج العقل؟

لقد اختار الغرب جانباً معيناً من فلسفة ابن رشد، ثم إنهم اختاروا جوانب معينة من الحضارة العربية الإسلامية، ولم يختاروا الجوانب كلها.. وهو الموقف ذاته الذي وقفه المفكر الإسلامي عندما اختار من الإغريق فكرهم وفلسفتهم، لكنه ابتعد عن أدبهم وأسطورتهم، بسبب أن الاسطورة التي هي نوع من الوهم تتنافى مع جوهر الإسلام.

لكن لماذا واجه ابن رشد كل هذا الأذى والعقاب؟

والحقيقة فإن الجرأة التي كان يمتلكها ابن رشد في تناول ما يريده من أفكار وقضايا، كانت تدفع بزمانه للغضب عليه، فهو لم يتناول القضايا بأسلوب (كليلة ودمنة) كما فعل (ابن المقفع) لأنه وجد في نفسه أقوى من أن يتستر وراء حيوانات هي التي تتكلم!

لقد كان ابن رشد واحداً من الذين أبرزوا التكامل في المعرفة، ليس في مجال تنوع اهتماماته وإنجازاته في الطب والفقه والقضاء والفلسفة والكلام حسب، وإنما في سعيه المباشر للتوفيق بين مصادر المعرفة، والجمع بين الموسوعية والتخصص، ولم يكن ابن رشد أول من حاول التوفيق بين الفلسفة والدين، لأن هناك آخرين سبقوه إلى أوجه التكامل في المعرفة الإنسانية.. أمثال: الكندي وابن سينا وابن باجة وابن طفيل،

إلا أن ابن رشد كان قد قدم فهماً اكثر عمقاً وشمولاً حول هذه المسائل والقضايا.

والواقع، فإن ابن رشد كان - في ذلك كله - مسلماً ملتزماً في إسلامه، لا يستطيع أحد إنكاره.. لكن ولعه بفلسفة الإغريق قد قاده للحصول عليه من مصادره المتاحة، وهو - على هذا النحو - فإنه لم يختلف كثيراً عن الإمام أبي حامد الغزالي، الذي كان يعتقد أن الأفكار التي لا تتناقض مع القرآن الكريم والسنة النبوية فإنه لا يلزم استبعادها، ومن هنا جاء قول الغزالي: (إنْ فعلنا ذلك فقدنا كثيراً من الحقائق).

كان ابن رشد يرى بأن الاختلاف في المسائل النظرية بين علماء الأمة لا يمثل مشكلة بل هو أمر طبيعي وأن الإجماع يتم فقط في المسائل ذات الطبيعة العلمية، وفي مناقشته للغزالي في كتابة (تهافت التهافت) حاول في هذا الكتاب تضييق الفجوة بين الأشاعرة والفلاسفة، ولكنه أوضح كيف أن الغزالي في نقده لابن سينا والفارابي وأرسطو، كان ينطلق من سوء فهم لغوي ونفسي.

وعلى أي حال، فقد كان الجدل الذي جرى بين الغزالي وابن رشد نقطة مضيئة في تاريخ الفكر الإسلامي، تواصلت بفعل جهود (ابن تيمية) عندما رد على كتاب (مناهج الأدلة) لابن رشد. ثم أعيد طرح المسألة عندما كتب السلطان محمد الفاتح المتوفى سنة ٨٩٣ هجرية كتاباً يميز فيه أسس الفلسفة الطبيعية والعلوم الإلهية للتوفيق بين الغزالي وابن رشد.

وطبقاً لما تقدم، فإن تأثير ابن رشد على الفكر الغربي كان عظيماً، عندما جرى تعليم كتابه في الطب والكليات حتى القرن التاسع عشر الميلادي، وكان أعظم شارح لأرسطو، وكان الأوروبيون يفضلون قراءة ابن رشد على ارسطو نفسه، وكانت محاولته التوفيق بين الدين والعقل ذات أثر بالغ في تطور اللاهوت الكاثوليكي.. حتى لقد قيل ان ابن رشد هو مشكّل الفكر الغربي الحديث في مجال الفلسفة والعلم واللاهوت..

لكن - من المؤسف له - أن الأمة لم تحفل بالكثير من جوانب فكر ابن رشد وانجازاته، بل إنها أحرقت كثيراً من كتبه، وضاعت أصولها العربية، وما عرف عنها إلا

من خلال ترجماتها العبرية واللاتينية.

لا بل، إلى جانب ضياع كتبه نتيجة حرقها في أثناء المحنة، فإن هناك سبباً آخر لمحدودية أثر ابن رشد في الفكر الإسلامي، ذلك هو سوء الفهم والتشويه الذي حدث بقيام بعض معاصريه، ربما حسداً منهم بإساءة تفسير مواقفه، وتدبير مؤامرة سياسية، تقود في النتيجة إلى نفيه وحرق أعماله الخاصة بالفلسفة والكلام.

ونحن بعد هذا الإسهاب الذي نرى من الضروري الاطلاع عليه، باحتساب ان هذا المفكرلا يمثل نفسه، بل هو يمثل منهجاً فكرياً عقلياً.. وجد بالمقابل منه جداراً من الفولاذ الذي أرادوا له أن يتحطم بقوته.. وينهار.. وبذلك تنتهي مرحلة فكرية بكاملها.

ولعلنا نحاول أن نجيب عن تساؤلات كثيرة حول أزمة المثقف والثقافة.. والمفكر والفكر.. والمجتهد والاجتهاد.

(٤)

كانت البداية هي الكلمة.. الفكر

لمجرد التذكرة، فقد قلنا في فصلنا السابق، أن ابن رشد قد تعرض - وبسبب اختياراته العقلية - إلى حملات يعرف أصحابها قبل غيرهم أنه لا أساس لها، ووجهت إلية اتهامات باطلة من دون فرصه لحق الدفاع عن النفس، وهو الحق الطبيعي لآي إنسان، بل إن بعض هذه الاتهامات وصلت إلى حد التزوير بالاستشهاد بمقاطع مبتورة من كتبه، ووصلت الأمور إلى حد اتهامه بالكفر والإلحاد، إلى غير ذلك من الألفاظ الجاهزة التي استعملت بغير حق وبغير حساب وبدون تحرز.

قيل إنه كافر.. وقيل إنه متحذلق.. قيل إنه ملحد.. وقيل وما أكثر ما قيل!

وكان هذا هراء ما بعده هراء.

والحقيقة، فقد تعرض ابن رشد - لسنوات طويلة - في بلاده لحملات عاصفة هوجاء.. ولم تكن لديه بالطبع فرصة للرد يطرح فيها وجهة نظره ويقول من خلالها كلمته بما يمكن أن تساويه، على الرغم من أن ذلك واحد من أبسط حقوق الإنسان.

وفوق ذلك، نسبت إليه تهم - يعرف ويعرف الذين وجهوها - أنه يقيناً لم يقترفها، وألحقت به مقاصد لم يسع إليها، ولا أعرف لماذا يدعى على رجل بعكس كل ما قاله وأعلنه.. وكانت تلك كلها أموراً محزنة!

لا بل إن الحملة وصلت بعد ذلك إلى أبعاد غريبة بالغة الغرابة، حتى فقدت شرعيتها، ولم يكن في هذا كله شيء، ولست أعرف ما هو المقصود بهذا الكلام، ولكني أعرف أنه كان ظلماً فادحاً وتجنياً على الحقيقة.

هذا ما قلته، وهو واضح كل الوضوح، وإذا جاز لي أن أضيف عليه شيئاً فهو أنه يكفينا القول بأن هناك (رجعية فكرية)، أما من يقف وراء هذه الرجعية، فهذا لغز لم

أستطع حله حتى الآن هناك تناقض غريب في الأمر كله.

والواضح أن (الرجعية الفكرية) حاولت تضخيم الأخطاء واسغلال السلبيات وتزييف التاريخ، وأرادت خراب الثقافة كلها متخذة من بعض سلبياتها مدخلاً إلى ما تريد.

وكان ما حدث لابن رشد - في تقديري - ليس من قبيل الاجتهاد الخاطىء، لكنه كان أسوأ، يتعدى خطأ الاجتهاد إلى السقوط الفكري إلى نوع من الانتحار المعنوي.. إنها إساءة إلى روحه وإلى وجدانه وإلى ضميره.

ولعلي أجبت عن أزمة إبن رشد قدر ما استطعت، وحاولت أن أعرض لمحات سريعة كأنها جوانب مشهد يلتقطه البصر في طرفة عين ويمضي بعده بسرعة إلى بقية مشاهد الصورة العامة.

وباختصار.. فقد تعرض ابن رشد إلى حملات من الإدانة الشاملة، هجمات رياح بلهاء، ومن المحزن أننا لا نفرق بين حالتين، حالة النقد وإن كان قاسياً، وحالة الإدانة الشاملة.

وفيما أتصور، فإن الحدود واضحة بين النقد والتهجم، وبصفة عامة فإن النقد هو أن يكون الكاتب موضوعياً، وأما التهجم فهو المحظور الذي يقع فيه الكاتب حين تكون كتابته ذاتية أو شخصية.

إنني أرجو أن يسمح لي بالاستفاضة في شرح هذا الموضوع، لأنه موضوع بالغ الأهمية، وكل ما أريده هو أن تتضح صورة الحقيقة، ولعلي أزعم لنفسي أنني أكثر الذين تعرضوا بالكتابة وضوحاً وتحديداً في هذه القضايا..

إنني آسف أن اضطر إلى القول بأنني راض كل الرضا عن إسهامي في مناقشة (قضايا الفكر). آسف أن أقول إن إسهامي كان إسهاماً بناء وعملياً، ومبعث أسفي أن مثل هذا القول يحمل شبهة التفاخر والتباهي، وهو ما لا أريده.

لقد وجد (المفكر) نفسه ليس فقط بين نارين ولكن بين نيران كثيرة، فالقضايا

أكبر من الكلمات.. ثم إن أحلى الابتسامات ليس في مقدورها أن تحل أعقد المشاكل.

ولكن هذا (المفكر) ماذا يصنع؟... هل يمكن أن يكون إلا نفسه؟.. وإذا لم يكن نفسه فمن يكون؟

إن رجل الفكر يحتاج إلى عنصر الإلهام.. وعليه أن يتصرف قبل أن تتحول رؤيته إلى حقيقة، وهذا يجعل الرجل العادي لا يفهمه.

والغريب، أن أكثر دعوات المفكرين ذهبت صرخة في واد، ووجدوا أنفسهم يعيشون نوعاً من المآسي الإغريقية التي أقدارها نهائية لا ترد.

ووسط حالة خلط مخيف.. أصبح هناك أمراء (مهراجات) متنافسون متحاسدون فيما بينهم، وشعوب شارك في قهرها أمراؤها، وساد الأمة جو يدعو إلى احتقار كل شيء. المستعمرون يحتقرون الأمراء الذين تواطأوا معهم ضد بعضهم وضد شعوبهم، والأمراء يحتقرون شعوبهم، والشعوب تحتقر أمراءها الذين أصبحوا أدوات في يد الأجنبي.

وتعاقبت أحداث كبرى سالت فيها أنهار من الدم وتفجرت فيها براكين من الحمم وانطلقت فيها ثورات وانهارت نظم وقيم وعروش.. بل وتغيرت خرائط!

ثم فتحت الأبواب في الأمة لهستيريا مخيفة. نوع من محاكم التفتيش الفكرية بعثت من جديد، وانطلقت كلاب الصيد تبحث عن فرائس من العلماء والمفكرين تتهمهم جميعاً بـ (الفكر الإلحادي)!

أليس هذا النوع من الجنون؟

كل ذلك كان خطأ في خطأ.

وكان على (مفكري الأمة) أن يتحملوا المسؤولية الإجتماعية والإنسانية، لأنهم يعرفون أكثر من غيرهم - بحكم اختصاصهم - نوعية المخاطر الكامنة، لكنهم مع

الأسف لم يتحملوها.

وهكذا حدث سوء تفاهم تاريخي محزن سوف تبقى عواقبه محسوسة لسنوات طويلة في الفكر الإسلامي وما يحيط به، ومن سوء الحظ أن الجزء الأكبر من هذه التكاليف سوف يدفعه هذا الفكر نفسه. والنتيجة.. اختلاط الحدود يمكن أن يسبب كوارث.

لا بد لنا هنا من وقفة.

وما أريد ان أقوله في هذه الوقفة، أنه إذا أرغم (المفكر) على السكون في بعض لحظات تاريخنا، ولم يعد سوى متفرج على مشهد غريب مثير، فإنه استطاع تمييز مسؤوليته الاجتماعية والإنسانية وحمل أعبائها، وهكذا كان: (رفاعة رافع الطهطاوي) و(علي مبارك) في الدعوة إلى التعليم.. الشيخان (جمال الدين الأفغاني) و(محمد عبده) في حمل لواء التنوير والتحرير، بل وإلى سنوات قليلة كان بيننا (طه حسين) بصيحته العظيمة بأن المدرسة حق لكل الناس مثل الماء والهواء.

من هنا.. يصح أن يقال: إن قيمة الفكر في هذا العصر - وفي كل عصر - هو بمقدار ما يستطيع أن يوفره من أسباب سعادة الناس في حريتهم وفي معاشهم وفي ثقافتهم، سواء بتعميق مداركهم أو توسيع معرفتهم واتصالهم بالعالم الذي يعيشون فيه.

وإنه لمن الضروري أن يأخذ (الفكر) دوره في حركة الحياة، وإذا كان (الفكر) أداة المراجعة والنقد والتغيير في مجتمعه وهو بالتالي عنصر القلق الكامن في قلبه - فإن هذا الحال يجب أن يتبدل - ولا بد أن يصبح (المفكر) جزءاً من (المؤسسة) وليس خارجها ايضاً على هامشها.

ولعلي أرفع صوتي عالياً، وأقول أنه لا ينبغي أن نحسب على الفكر ما ليس منه، فليس من الفكر كل هذا الذي نراه من محاولات نقد التاريخ.

وربما أجد نفسي مضطرا أن أقول: إن وقائع التاريخ وحقائقه تتحقق عن طريق نشر وثائقه، وعن طريق شهادات الذين عاشوا تفاصيله، وعن طريق فتح باب الدراسة

والمناقشة والحوار والتحليل حول ذلك كله. أي أن الوثائق والشهادات إلى آخره.. يمكن أن تكون المادة الخام ولكن قيمتها الحقيقية تبدو من خلال الدراسة والحوار والمناقشات، وهذا ما يجلو الحقيقة، وهو ما تفعله كل الدول المتقدمة التي تنشر وثائق تأريخها بعد فترة معينة من الزمن ثم تتركها للدارسين والباحثين والمحققين والحوار بينهم.

واظهار الخطأ في أي تصرف ممكن، تحميل كل طرف مسؤوليته من واقع فكره ممكن، والتنبيه والتحذير وإبراء الذمة كلها أمور ممكنة، ولكن الوصول إلى نقد التاريخ بكل فكرة ليس ممكناً بسهولة أو بساطة.

لكن المشكلة أننا لا نعرف من هو المسؤول عن (مأساة الفكر): أَهُوَ سوءُ تقدير؟ أو أنه كان فرط حساسية؟ أو ماذا بالضبط؟

المشكلة أصبحت كاريكاتورية فعلاً.

مشكلتنا الآن هي المشكلة القديمة نفسها: إن قوة الإنسان سبقت يقظة ضميره، وأن نمو عضلاته جاء قبل نمو تفكيره.

ولم نتوقف مرة لنراجع أنفسنا ونسأل: لماذا يحدث كل هذا الذي تصورناه مرة بعد مرة؟

نماذج متكررة، أحدها بعد الآخر في سياق متصل، ومثل ذلك لا يمكن رده إلى الصدفة، ولا يسهل تفسيره بمجرد تبريره.

أترك جانباً من قضايا الفكر.. وأصلُ الآن إلى الخالد الأكبر في التاريخ (أبو حامد الغزالي) أحاول بقدر ما أستطيع إنسانياً أن أعرض قصته، وهي في الحقيقة قصة (الشك والإيمان) كلها بإيجاز واختصار.

لكن، لماذا أبو حامد الغزالي بالذات؟

هناك بالطبع سبب واضح وهو أن (الغزالي) كان - ولايزال - أكبر (نجم) في سماء الفكر الإسلامي وكان نفوذه أيامها في السماء.

ومن ناحية أن الطاقة العقلية لهذه الكتلة الإنسانية فيها من قوة الجذب بمقدار ما فيها من قوة الطرد. وأعترف أنني استسلمت لقوة الجذب في شخصية الإمام الغزالي ووجدت نفسي من عشاقها منذ بواكير حياتي.. وكانت آراؤه تلهب خيالي، وتشدني إلى أن أرى وأسمع وأتابع وأكتب وأتكلم.

والحق، فقد كان دور الغزالي في الإسلام بما يشبه دور الضمير في حركة التاريخ.. وكان الغزالي حائراً بين العقائد والناس والتجارب، وكان صعباً أن يجد ما هو أفضل.

هو فعلاً ذلك المزيج من الثقة بالنفس - عند الجذور - والشك في النفس - في ذات اللحظة - أمام المتفرعات والمتشابكات والمتناقضات المكدسة أمامه.

كان الغزالي يعد نفسه لدوره.

ولعل نظرة سريعة على قصة حياة (أبي حامد الغزالي) تستطيع أن تعطي بعض الإشارات والتلميحات، منذ سعيه الأول للإمساك بمفاتيح هذا الدور.. وهو يقترب من القمة ويخطو في اتجاهها.

صبي يولد في قرية قرب مدينة (طوس) (٤٥٠ - ١٠٨٥م) في الفترة التي كانت فيها البلاد رازحة تحت حكم الدولة السلجوقية التي تمتعت باستقلال نسبي عن الخلافة العباسية.

والصبي يخرج بصحبة أخيه (أحمد) يتلقيان الدراسة وطرفاً من التصوف على أصوله.. وهو يختار أحد أصدقاء ابيه للتعلم على يديه.. ثم يسافر الشقيقان إلى جرجان.. ثم يكملان المشوار إلى نيسابور.. وفي نيسابور بذل (الغزالي) جهداً خارقاً لكي يقدم عمله لهم، وفي الحقيقة فإنه كان يريد أن يقدم نفسه لهم.. وكان أكثر طموحاً من كل زملائه الذين تتلمذوا على يد أستاذهم (الجويني) إمام الحرمين.

ولم يصل (الغزالي) إلى شيء، ولكنه راح يفكر، وراح يجيل النظر من حوله، وواجه نوعاً مخيفاً من التناقض يطل على عصره ويحول بصره عنه رعباً منه وتطيراً.

وعرف (الغزالي) أن المشكلة التي شغلته تشغل غيره أيضاً.

وتدور الأيام.. ويعجب وزير نظام الملك السلجوقي بعقلية الإمام الغزالي، ويفتح أمامه باباً لفرصة يدخل منه ليمسك بها.

كانت الفرصة.. أن يحاور الغزالي مجموعة من العلماء في مجلس الوزير السلجوقي ويناقشهم.. وتلقى الغزالي هذا العرض وهو يشعر أنها فرصته التي أعد نفسه لها.. وأن يجهز في كل نقطة منها ورقة أفكار عامة تكون منطلقاً للمناقشة.

وجلس الإمام الغزالي مع العلماء الأقوياء يسمعهم وهم يبدون آراءهم بغير تحفظ.. ثم يكون عليه أن يبلور هذا كله في نتيجة نهائية.. لكنهم أحسوا أن محاوراتهم ومناقشاتهم لا تتبلور في شكل نهائي.. وأن الأفكار التي طرحوها أمام الغزالي كانت مجرد سحاب أو سراب!

وما هي إلا شهور قلائل حتى حزم الغزالي حقائبه من نيسابور وتوجه إلى بغداد، فقد اختاره الوزير السلجوقي أستاذاً في نظامية بغداد سنة ٤٨٤ هـ.. وكان عمر الغزالي - وقتها - لا يزيد عن خمس وثلاثين سنة.. ثم إنها استجابة تاريخية لنداء لا يريد لفرصته أن تضيع.

وكان بينهم مَنْ بهرهم بوهج شخصيته، وبينهم من بهرهم بأسلوب مناقشاته، وبالمنطق الذي تناول به معضلات الكون.. وبينهم من أشار إلى عبقريته بأطراف أصابعه.

يصف الغزالي شكه فيقول: إن التعطش إلى إدراك الحقائق كان دأبه وديدنه، وأنه حاول أن يعرف حقيقة الفطرة التي يكون عليها الإنسان قبل الاعتقادات العارضة، ليتوصل بذلك إلى العلم اليقيني الذي لا يتطرق إليه ريب ولا يتسع القلب للشك فيه، ولما امتحن علومه لم يجد من بينها علماً يبلغ مرتبة اليقين إلا الحسيات والعقليات،

ولكنه تأمل في المحسوسات فلم يجد فيها أماناً لأن العين قد تخدع ترى الظل ساكناً وهو متحرك، وترى الكوكب صغيراً وهو أكبر من الأرض، ورأى أن الذي كذب الحِسّ وعرف خداعه هو العقل. ولما بطلت ثقته بالمحسوسات لم تبق لديه إلا العقليات. فحاول أن يشكك نفسه فيها فرأى أنه كان واثقاً بالمحسوسات حين كذبها العقل، ولولاه لاستمر على تصديقها.

ولعل وراء العقل حاكماً آخر إذا تجلى كذب العقل في حكمه كما تجلى العقل فكذب الحس في حكمه، وتوقف عقله في الجواب وتأيّد الشك والإشكال عنده بما يراه النائم في أمور يعتقد أنها حقيقة ثم يظهر له عند اليقظة أنها لم تكن إلا أحلاماً. ودام شكه مدة شهرين كان فيهما، كما يصف نفسه، على مذهب السفسطة، بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال.

ثم ما زال الغزالي يتأمل حتى وقر في نفسه أنه ليس له علاج إلا بالدليل، فأدرك ما أدركه (عمانوئيل كانط) بعده بستة عصور، وهو وجود الأفكار الفطرية وهي الأوليات الضروريات البديهيات التي لا تقوم الأدلة الصحيحة إلا عليها، ولا يصل العقل إلى اليقين إلا بها، ورأى، مثلما رأى الفارابي من قبل، أن هذه الأوليات هي معان ظاهرة مركوزة في الذهن ولا شيء أظهر منها، ولا يبرهن عليها، لأنها بينة في نفسها ويقينية إلى أقصى درجات اليقين، ولا يمكن الاستغناء عنها في إقامة البرهان على أي قضية لأنها أسس وأصول بديهية لا مجال للشك فيها عند عاقل.

ثم نظر فيما قالوه عن الإدارك الحسي والإدراك العقلي، فرأى أن الحواس تأتي بالمدركات الحسية مجموعة فيتناولها العقل بالتفصيل والمقارنة، ولكنه أدرك، كما أدرك من قبله ابن سينا، أن هذا العقل يحكم بثبوت شيء لا إشارة له ولا وضع ولا يكون منشؤه الحس، وهو المعقول في نفسه لا المدرك من المواد. أي أنه أدرك كما أدرك (عمانوئيل كانط) من بعده أن للعقل فطرة خاصة يتمكن بقوتها من إصدار أحكام إنشائية جديدة لا يكون منشؤها الحس ولا يمكن إدراكها من المواد. وهكذا رجع إلى يقينه بالعقل وأحكامه، كما رجع (ديكارت) من نفس الطريق وبنفس الأقوال.

كانت منهجية الغزالي التي وصل إليها بعد استعراض الفرق الأربع الأولى، تمثل معتقد الفرقة الخامسة، وهي المتوسطة، الجامعة بين البحث عن المعقول والمنقول، المُنْكِرة لتعارض العقل والشرع وكونه حقاً، ومن كذب العقل فقد كذب الشرع، إذ أنه بالعقل عرفنا الشرع، ولولا صدق دليل العقل لما كنا نفرق بين النبي والمتنبىء، والصادق والكاذب، ثم كيف يكذب العقل الشرع، وما ثبت الشرع إلا بالعقل؟!

وينتقد الغزالي الفلاسفة، بسبب أنهم اعتمدوا على نتائج فاسدة بنوها على مقدمات صحيحة، أو على نتائج صحيحة بنوها على مقدمات فاسدة، ويرى أنهم ينقسمون إلى (فلاسفة دهريين) - وهم الملحدون - وإلى (فلاسفة طبيعيين)، وهم المؤمنون بالله وصفاته لكنهم لا يؤمنون بالدين، وإلى (فلاسفة إلهيين) - ومنهم سقراط وأفلاطون وأرسطو - هؤلاء ردوا بدورهم على الفلاسفة الدهريين والطبيعيين.

ومع أن الإمام الغزالي انتقد الفلاسفة بشدة ورأى فيهم رأياً جارحاً في كتابه (تهافت الفلاسفة)، إلا أنه - مع ذلك - لا يعادي الفكر الفلسفي، فهو - على أقل تقدير - أشاد بالمنطق، والرياضيات، والفلك والسياسة.

للإنصاف أكثر، فإن الإمام الغزالي كان يحصر أصول الشريعة في أربعة أركان هي: القرآن الكريم، السنة النبوية، الإجماع والعقل.. ومن هنا كانت عقلية الغزالي أوسع عقلية عرفها تاريخ الفكر الإسلامي، ولعلها الأقرب إلى المزج بين النظرتين الأفلاطونية والأرسطية. وبلغ مذهبه الأوج من الشمولية والتكاملية والعمق، وهو ينطلق في بحثه عن الحق والحقيقة من نقطة الصفر، مستعرضاً الرؤى والطروحات كافة.

وإذا كنا نحن في هذا المجال نناقش الدعوات والطروحات والمذاهب التي أنتجتها الأمة في حضارتها، فإنه - وهذه حقيقة - لا يمكننا - وفي كل الظروف - تجريدها من واقعها الاجتماعي والأسباب التي أجبرتها على الظهور.

وعلى هذا النحو - برزت إلى الوجود (القدرية) التي أنكرت (الجبر) ونادت إلى حرية الإرادة الإنسانية - كرد فعل لاتجاه الجبر الذي سلكه خلفاء ذلك العصر.

وعلى هذا النحو أيضاً - برز منهج الجهم بن صفوان العقلي، كنتيجة طبيعية وحتمية للرد على هجمات اليهود من ناحية والمانوية والمذاهب الفارسية على عقائد الإسلام من ناحية أخرى. . فلقد رأى جهم أن الاعتماد على التأويل العقلي في إطار الضوابط اللغوية، هو الكفيل بالدفاع عن الإسلام في المآزق الفكرية الكبرى.

وعلى هذا النحو أيضاً - ذهب الإمام أبو حنيفة يصوغ أول نظرية في علم الكلام كما جاء في كتابه (الفقه الأكبر). . وانطلق الإمام أحمد كنتيجة طبيعية وحتمية لما وقع فيه من محنة كبرى إلى بلورة اتجاه عقلي كلامي يتسق ضمن متكلمي أهل الحديث.

ثم تفاقمت الأمور وتأزمت، واختلطت القضايا والحقائق بحيث لم تعد تفهم، والدنيا هائجة مائجة، وأخذ الفكر الإسلامي - نتيجة لذلك - شكلاً حاداً وعنيفاً، ولكن الصراع كان على أشده من أجل الوصول إلى أوسع البشر.

لكي لا يفلت مني خيط الموضوع الذي أتعرض له الآن فلا بد أن أتذكر وأذكّر غيري - اعترافاً بالفضل - للإمام الغزالي الذي كان ظهوره سبباً في تقزيم الطروحات الفكرية النابعة من الفلسفة الاغريقية، ولعل هذا - في تقديرنا - ليس خياراً بشرياً - بل تقديراً ربانياً يمثل رعاية إلهية لعقيدة المسلمين التي حفظها الله سبحانه كما حفظ كتابه المجيد. . يضاف إلى ذلك كله أن الغزالي تسامى في تفكيره فجاء بكلام بديع سبق به الأولين والآخرين وبسط فكرتي الزمان والمكان اللتين لم تكونا لهما وجود قبل خلق العالم.

وإذا كنّا ندين للإمام الغزالي في هذا المجال، فإننا لا ننكر أن مدرسة الغزالي - بما أثرت على الأجيال اللاحقة - كانت سبباً كبيراً وخطيراً في إيقاف حركة الإبداع والاستكشاف والريادة والتفكير حتى كان التمهيد (للجريمة) بما سمي بغلق باب الاجتهاد، والله يعلم ان باب الاجتهاد مفتوح إلى يوم القيامة.

والعجيب أن يسد باب الاجتهاد وتعيش الأمة جفاف الفكر وقحط الخيال، في زمان كانت الحضارات الأخرى تمارس فيه أكبر مراحل التنوير والتفكير والاستكشاف،

انتهى بها إلى تفجير الثورة الصناعية الكبرى، التي نتج عنها غزو العالم ومحاولة تصريف البضائع، ثم اكتشاف رأس الرجاء الصالح والقارة الأمريكية في القرن الخامس عشر الميلادي.. وكان ذلك مدعاة لآلام وأحزان عميقة، وقدراً مكتوباً لا يمكن تجنبه.

وهكذا، ضاعت على أمتنا - مع الأسف - فرصتها بين الأمم في الإمساك على قدم المساواة بموازين العالم، كمشروع أمة ومشروع نظام.. وأقولها حزيناً.. أن أحلاماً عريضة راودتها ذات ليل ثم استيقظت في الصباح، فإذا سياط الأجنبي الغريب تجلدها وتُسِيل دمها وكرامتها واستقلالها.

ولا تزال الطاحونة تدور.. والطحين معظمة للغريب (فطائر حلوى) وليس لخبز أصحاب الأرض الأصليين (فهؤلاء ما زال خبزهم مخلوطاً بحصى الرمال!).

وترتبت على ذلك نتائج مزعجة.

وكان لا بد للغرب الغريب أن يجد شارعه للسيطرة، ووجد أمة بأكملها كانت في انتظاره وهي (أمتنا).. وكانت أضواؤها قد خفتت ونجومها شحبوا لأسباب كثيرة.. وانتفح الطريق أمامه، فقد ذهب الصوت ولم يعد باقياً غير الصدى.

ثم ماذا أقول؟.

هل أقول - والقول صحيح - ذات يوم كانت أمتي، أو كانت فروعها، تجلس على نصف عروش اوروبا.. والآن لم تبق إلا نماذج متكررة لسفينة واحدة - السفينة معروفة ومشهورة في التاريخ. هي نفسها (سانتا ماريا) التي ركبها (كريستوفر كولومبس) وسافر عليها بمباركة اسبانية، فاكتشف العالم الجديد - امريكا؟!.

ونحن أين؟.

سقطت الأندلس في يد الملك (فردينا ند) والملكة (إيزابيلا) وانقطع تواصل الإسلام بتحالف الملوك الصليبيين ضد مسلمي الاندلس، ولم تكن للأندلس بعد هذا الانقطاع غير ان تتقبل ما حملته لها الرياح.. وحملت لها الرياح كثيراً اختلط أمره.

الأدب باع نفسه لصالح السياسة.. والعلم باع نفسه لصالح السلطان.. والفكر باع نفسه لصالح رأس المال.

وهكذا ساد فكر يتسم بالجمود، وصار المسار حرجاً وصعباً، وكان من اللازم والضروري أن نتعلم لغة غيرنا لكي نستطيع أن نتكلم معه.. حتى إذا أردنا أن نفهمه تعيّن علينا أن نغوص إلى أعمق من مجرد تعلم لغته.. يصبح لازماً في هذه الحالة أن نحاول التعرف على تجربته.

لكن الذي حصل هو بعكس ذلك تماماً..

أليس هذا ما حدث حتى في تاريخنا القريب.. القصة نفسها تتكرر في كل زمان ومكان.. سدّوا باب الاجتهاد في وجه كل مجتهد.. وأغلقوا منافذ التفكير.. وأخضعوا العقل العربي تحت تأثير المنطق القبلي.. وحكموه بالولاءات لأفراد.. وأمسكوا به أسير ثنائية أحد موقفين لا ثالث لهما: الأسود أو الأبيض، الجنة أو النار، الحياة أو الموت، الأصالة أو المعاصرة، الحب أو البغض، الكفر أو الإيمان.

والغريب أنهم فعلوا أكثر من ذلك فربطوا المصير العربي نفسه على نحو أو آخر، بسلاسل إلى الأجنبي الغريب، بعضها سلاسل من ذهب.. وبعضها سلاسل من حديد!.

ثم ماذا - بعد هذا كله - أقول؟!.

(٥)

كان العصر الأموي هو عصر الفكر الجديد الذي تركزت عليه كل الأضواء وازدحمت فوقه كل الألوان وتدافعت حوله كل الأصوات، وأصبح في طرفة عين استعراضاً لم يسبق له مثيل ويحار مشاهدوه في نسبته للمجال الذي ينتمي إليه: وهل هو مجال الفلسفة أو هو مجال الدين؟

هناك.. انطلق الجميع - فلاسفة ومتكلمين ونَصّيين وكأنهم انطلقوا من ماسورة مدفع رشاش تتدافع طلقاته بسرعة وفي كل اتجاه.. وكان من السهل في حالة المزاج السائدة أن يبدو الفكر الإسلامي - على هذا النحو - وكأنه هجوم شامل.

ومن ناحية أخرى فقد بدأت التساؤلات تتصاعد وترتفع حرارتها درجة بعد درجة.. وكانت المعركة مفتوحة على آخرها.

كان البحث يدفع بأصحابه إلى مسالك مألوفة أحياناً وإلى مسالك وعرة في أحيان أخرى، فالبعض يبحث بأسلوب المنطق، والبعض يبحث بمنطق التاريخ، والبعض يبحث بأسلوب النص.. المهم كانوا جميعاً يبحثون.

وهكذا فإن العقل الإسلامي راح يسائل نفسه ويحاورها لعله يصل فيما يرى ويسمع إلى يقين.. وفي هذه العملية من البحث في أعماق الحوادث فإن العقل الإسلامي وصل إلى استنتاجات وقناعات كان له الحق في الوصول إليها، ولو إلى حد ما.

ولعل بعض الطروحات والدعوات التى خرجت منذ العهد الأموي بدت وكأنها موجهه (ضد شخص) بأكثر مما بدت وكأنها موجهة (ضد هدف)، وذلك فتح الباب لمظان المصالح الضيقة، والمنافسات العقيمة، وتسوية الحسابات القديمة، وربما لم يكن ذلك موجوداً، ولكن ظواهر الجو العام خلقت انطباعاً بوجوده، ولم يكن ذلك الإنطباع نافعاً.

هكذا انفجرت مشاكل وقضايا ودعوات لم يكن ذلك وقتها.

ومثل هذا يحدث دائماً وحدوثه ظاهرة طبيعية.

ولعل المعركة تجاوزت كثيراً حدود الفلسفة، مع أن العلاقات بين الفلسفة والدين (القانون الإلهي) ظلت طوال عصور متعاقبة إحدى المسائل الكبرى للفكر الإسلامي.

وبمقتضى هذا المفهوم، كان لا بد للعلاقة بين الفلسفة والدين من أن تأخذ مكانها.. وكانت الترجمات العظيمة من الإغريقية إلى العربية والتي أنجزت بوساطة السريانية بادىء ذي بدء ثم بصورة مباشرة بعدها، قد قدمت بين يدي العمل العظيم الذي أبدعه الفكر الثاقب لهذا العصر الحضاري الإنساني، رؤية للعالم أملاها الجهد المدرك الحكيم الذي ما فتىء العقل البشري يتابعه.

انطلق الإثنان، الفقيه والفيلسوف، وكانت لكل واحد اجتهادات نظرية في الاسلوب الذي يجب أن يمارس أي من الاثنين دوره.

وإذا كان الفقيه يبدأ من (الواقع) ولا شيء غيره.. فإن الفيلسوف يبدأ من (المجرد) ولا شيء قبله..هذا من ناحية المنطق، وعلى هذا النحو فإن المسألة الفقهية تختلف عن المسألة الفلسفية. ذلك أن المسائل الفقهية تكون استجابة لموقف، بخلاف المسائل الفلسفية فإنها استجابة لأمل.

والواضح، أن العرب لم يعرفوا الفلسفة على أنها فلسفة ولم يعرفوا الفرق بين مذهب ومذهب من مذاهب الفلسفة، بل لعلي أتجاسر وأقول.. إن الفكر العربي الإسلامي - في الفلسفة - ليس أصيلاً في ينابيعه الأولى، وبما جاء في فلسفته وحكمته، وإشراقيته وصوفيته، ولست أتردد عن أن أقول.. إن العبقرية العربية الإسلامية برزت وأبدعت في مجالات كثيرة غير الفلسفة كالفلك والرياضيات والبصريات والطب، وكانت الفلسفة الأقل حظاً بين هذه العلوم.. ولعل السبب أنها نشأت في أرض بكر عذراء لم تعرف - قبل معرفتها - شيئاً عن الإغريق وفنونهم.

والحقيقة، فقد تأثر الفكر الإسلامي - بادىء ذي بدء - بالقرآن العظيم والسنة النبوية، وكذلك بما أخذه هذا الفكر عن النبي الكريم ﷺ والصحابة والتابعين من حديث وقول وسلوك يتسامى وهدفه الأول في التوحيد ويتفق وخياله العاطفي والميثولوجي.. وكان مجال هذا التأثر أنه أطلق للفعل سراحه في الأداء النفسي في النظر إلى كائنات الطبيعة واستمد دروساً منها على وجود الحق المطلق الخالد.

وعلى أي حال، فإن الفلسفة مرت في ثلاثة عصور: عصور قديمة، وعصور وسيطة، وعصور حديثة، ولم يكن في العصور القديمة كلها أرقى في الفلسفة من أرسطو وأفلاطون.. ولم يكن في العصور الوسيطة كلها أرقى في الفلسفة من الفارابي.. ولم يكن في العصور الحديثة كلها أرقى في الفسلفة من فرنسيس بيكون ورينه وديكارت وجون لوك وديفيد هيوم.

ثم ماذا؟

كان هناك نوع مما يشبه (ضباب الفكر) ساد وغطى الجو الإسلامي كله.. وعندما أفاق الجميع من الصدمة وخرجوا من نقطة (ضباب الفكر)، فإن أحداً لم يلتفت إلى ما قال.. فقد كان الضجيج صاخباً، في أمة كان نهارها شديد الزحام وليلها طويل السهر.

ولعل بعضهم تَعوَّدَ الحياةَ تحت الأضواء، ولعل بعضهم الآخر كان يريد أن يتبرع بنصائحه في أيام المجد ويتحدث كأستاذ يملك التاريخ ملكية خاصة ويحتفظ بسلطان على الأرض لا يطاوله سلطان.

كان السوفسطائيون يعزفون بالفلسفة عن دراسة الطبيعة إلى دراسة الإنسان، الذي هو مقياس الأشياء جميعاً، ويبررون الوسائل بالغايات، ويلجأون إلى التبرير وإلى المنفعة وإلى البراجماتية في محاسبة الخصوم على آراء ومعتقدات.

وكان الأفلاطونيون يشركون بالخالق الصانع الأزلي الأبدي قديمين آخرين هما المادة الأولى (الهيولى) والمثال الذي كان الخلق على غراره من المادة الأولى القديمة

بفعل الخالق الصانع الإله القديم. وكانوا يكفرون بالديمقراطية ويؤمنون بالدكتاتورية في حكومة الفيلسوف.

وكان الأرسطيون يرون أن هذا العالم قديم مادة وزماناً وحركة ومكاناً، وأنه في حركة دائمة متصلة من الأزل إلى الأبد.. وأن محرك العالم من الأزل إلى الأبد هو الكمالُ المطلق، الذي هو غاية الغايات جميعاً بلا انتهاء.

وكان الرواقيون يرون السعادة في الخير، والخير في السعادة، وأن السعادة هي استجلاب اللذه واستبعاد الألم.

وكان الأبيقوريون، يرون أن أصل الوجود هو الذرات وأنها متحركة بذاتها، وأن علة حركتها موجودة فيها، وهي ثقلها، وأنها لثقلها تتحرك من أعلى إلى أسفل ولكنها تنحرف قليلاً، وهي ساقطة، فتلتقي، وتؤلف المركبات.. وأن الحياة كلها نشأت عن هذا التأليف مصادفة واتفاقاً.

بالمقابل من ذلك كله.. كان الفارابي أفلوطينياً يعتقد بالفيض، وكان الكندي معتزلياً في مسألة الصفات والتنزيه والتوحيد.. وكان ابن سينا يرى قدم العالم.. وكان السهروردي إشراقياً.. وكان الرازي يعتقد بالقدماء الله والنفس والمادة والزمان والمكان والحركة.. وكان ابن مسكويه يؤمن بمذهب النشوء والارتقاء في خلق العالم.. وكان ابن خلدون يرى أن العقل ميزان صحيح وأحكامه يقين.. وكان ابن طفيل يرى أن العقل الإنساني قادر من غير تعليم ولا إرشاد، على إدراك وجود الله، بآثاره في مخلوقاته، وأن هذا العقل قد يعتريه الكلال عندما يريد أن يتصور الأزلية المطلقة، والعدم والمطلق، واللانهاية، والزمان، والقدم، والحدوث.. وكان ابن رشد قد اعتمد في فلسفته وفي الاستدلال على وجود الخالق الصانع (دليل النظام) الذي يسميه هو (دليل العناية والاختراع) رافضاً (دليل الحدوث ودليل الوجوب) اللذين قال بهما الفلاسفة واعتمد عليهما المتكلمون.. وجاء الغزالي، الذي فضله ابن طفيل على الفارابي تحت ظل الأمراء الموحدين، بعد أن كان ابن باجه قد فضل الفارابي عليه تحت ظل المرابطين، وأحدث الغزالي أعظم زوبعة إعصار نقدي في تاريخ الفلسفة كله، فلم

يخلص منه لا أرسطو ولا أفلاطون ولا الفارابي ولا ابن سينا ولا ابن رشد ولا أبو حنيفة.

وعلى هذا النحو، بلغ العالم الإسلامي في القرون الأربعة الأولى شأناً خطيراً في الخلق والعلم والحضارة، ووصل نفوذه إلى السماء، حتى كاد يكون سيد العالم في هذا كله، فقد استوعب في علمه ما في جعاب الأمم الأخرى من هند وفرس ويونان وروم، وابتكر فيه، وكانت حضارته أرقى الحضارات.

ثم تطورت الحوادث بسرعة مذهلة، وإذا أبعدُ الاشياء عن الظن هو أقربها إلى الوقوع على حد تعبير الكاتب الفرنسي الأشهر (أندريه موروا)!

هجمت العقائد بأفكارها إعصاراً كاسحاً على عالم إسلامي يبحث لنفسه عن إطار متجدد لحمايته بعد أن تحولت فكرة ودولة الخلافة الإسلامية إلى شبه انهيار.

كانت النتيجة حريقاً ألهبه الفقهاء والمتكلمون والفلاسفة والمفكرون والخطباء والشعراء.. صراعاً من نوع ليس له مثيل أو سابقة في التاريخ، بدا لمعظم الناس صراعاً بين الخير والشر، بين الفضيلة والنقيصة، بين الأريحية والنفعية، بين الإيمان والشرك، مختبراً لعقائد الكل ومختبراً لأسلحة الكل، وهكذا هبت العاصفة العاتية الكبرى على الدنيا بأسرها.

ووسط هذا الصراع الفكري، الذي امتهنت بعض أطرافه قدسية الحديث وعقول الأمة، والذي بلغ حد الحرب والثورة الخارجية المستمرة.. برز خطباء ودعاة يمارسون دور (الخطيب السياسي) للثورة في ضوء أصولهم الفكرية التي كوّنت مذهب فرقتهم وتيارهم الفكري.. ولعل هذا الخليط الفكري والعقائدي وهذا (الخطيب السياسي) يذكرنا بمفكري (الفابية)!

كان مفكرو (الفابية) قد حلموا (بالاشتراكية والديمقراطية) يغزلون خيوطاً إنسانية عظمى ورؤى مستقبلية باهرة، لكنهم كانوا يعرفون أن رجل الفكر لا يستطيع أن يخوض معارك السياسة حتى ولو كان هدفه تعليم الجماهير. وكانوا يرون ضرورة وجود رجل

بسيط بين المفكر والشارع وهو دور الخطيب السياسي البارع في اللعب بمشاعر سامعيه وإعادة تشكليها. وكانوا يرون أن على المفكر أن يفكر ثم يجيء (الخطيب) ويلتقط الأفكار ليحولها إلى حركات شعبية مؤثرة تهز الشوارع والمصانع والقرى وتزحف نحوه السلطة.

وأتصور - على أي حال - أن هناك بعض من سألوا أنفسهم: وماذا بعد؟

كان هذا هو السؤال الأهم، سؤال كبير وخطير، ولكني في الحقيقة لا أريد الان أن أجيب بنفسي عليه، ولعلي أوثر أن أؤجله لفرصة أستطيع فيها أن أروي وقائع التاريخ يوماً بيوم، بل ساعة بساعة.

والآن، إلى المعتزلة.

في قصة ظهور المعتزلة فإن (المقدمات)، طويلة، ومعقدة، وهي تبدأ بالظروف التي برزت فيها أفكار ومعتقدات (القدرية)، والجبرية)، و(الأشاعرة)، و(المرجئة) في القرن الأول الهجري، ثم تتصل بعد ذلك باعتزال واصل بن عطاء مجلس الحسن البصري في البصرة، ثم ترتبط برجال حملوا الفكر الاعتزالي ودافعوا عنه بقوة، ولمع بينهم وسط المجموع: عمرو بن عبيد، والأصم، والعلاف، وثمامة بن الأشرس، وأحمد بن أبي داؤود، والنظام (صاحب المدرسة العقلية النظامية)، والجاحظ (صاحب المدرسة الجاحظية)، وابن ابي الحديد والقاضي عبدالجبار.. ويمكن أن يقال بغير مبالغة أن هؤلاء الرجال لعبوا دوراً حاسماً في تنوير العقل، وأسباب ذلك يمكن فهمها بالطبع وردها إلى دواعيها الحقيقية.

والواضح، أن المعتزلة ركزوا - ومنذ البداية - على قضايا، عَدُّوها من الأولويات - بحسب تصورهم - فدرسوا العدل والتوحيد وحرية الاختيار والمنزلة بين المنزلتين والترجيح بلا مرجح في الخلق، واهتموا بالهيولى والجزء الذي لا يتجزأ والثواب والعقاب وخلق القرآن.. وكانت هذه كلها مقدمات تشير بعض وقائعها إلى بداية مواجهة فكرية كبرى تنفتح عبرها أبواب الصراع مع الآخرين في الآتي من الزمن.

والحق، أن العتزلة وجميع المتكلمين لم يؤلفوا شيئاً مستقلاً في الفقه، وإن كانوا قد توسعوا بمباحث في صلب الإلزام الديني وشروط التكليف، ومن هذه المباحث مسائل الحرية والجبر والاختيار والقدر ومسائل أخرى.

ولعل المعتزلة - وهم أخطر تيارات الإسلام الفكرية - لم يكونوا مجرد مفكرين نظريين، وإنما كانت لهم جهود سياسية تطبيقية عملاقة، حاولوا من خلالها وضع فكرهم السياسي النظري في التطبيق وتجسيد فلسفتهم السياسية في المجتمع الذي عاشوا فيه.

إن الفكر النظري الذي قدمه المعتزلة في الإمامة وأصول الحكم وفلسفته قد تعدى مجال البحث والفكر والجدل، وذلك عندما حاولوا وضعه موضع التطبيق، بالسلم حيناً وبالثورة حيناً آخر.. وذلك لأنهم لم يكونوا مجرد فلاسفة إلهيين ومفكرين نظريين، بل كانوا - إلى جانب ذلك - ثواراً وساسة، أقاموا تنظيماً (فكرياً - سياسياً) تسلح بالعقل، وناضل في سبيل دولة: يحلّ فيها الفكر القومي القائم على الحضارة محل العصبية القبلية والتعصب الشعوبي.. ويسود فيها العقل على الخرافة، ويتقدم على غيره من الأدلة وسبل الاستدلال.. ويصبح فيها (أهل الاختيار)، الذين يكونون (الرأي العام المستنير) هم سند الدولة وقوتها، وهم كذلك الرقباء عليها والمحاسبون لها.. دولة تسود فيها أصول المعتزلة الخمسة، وترتفع فيها رايات أهل العدل والتوحيد.

ومنذ بدء هذه التي اصطلحوا على تسميتها بـ (المعتزلة)، كان لقضية العقل مركزها الجوهري في فكرهم، فكانوا يدعون الى فلسفة العقل والتنوير، ويثقفون بها على قدم وساق، وكانت حرية الفكر الشعار الإنساني للعقل والضمير في مواجهة الجمود الثقافي، والرجعية المتحجرة، والتعصب، والأفكار العدوانية. وللتاريخ، فقد ثبت أن فترات التدهور الطويلة، والتي كانت فترات الاحتلال الأجنبي والهيمنة الاستعمارية في أمتنا لم تكن لتحصل لو كان المواطن مسلحاً بحريته الفكرية والعقائدية.

ويوم كان المحتلون الغزاة يداهمون أمتنا، كانوا لا يجدون أسواراً وموانع قوية تردهم إلى الوراء، لأن فقدان الحرية الداخلية كان يترتب عليه الشلل، والعجز والخواء.

من هنا، فإنه لم يكن ظهور المعتزلة شهاباً برز من المجهول فجأة، وتوهج في

الظلام على غير انتظار، فلا شيء في التاريخ يحدث على هذا النحو، لأن التاريخ سياق متصل.. ولعلنا نتفق على أنه لا يمكن فهم أي حدث في عزلة عن المناخ الذي جرى تحته، كما أنه لا يمكن إدراك أي تعبير بعيداً عن الإطار الذي تم فيه.

وهكذا فإننا حين نتحدث عن المفاجىء وغير المنتظر في التاريخ. إنما نتحدث في الواقع عما خفيَ علينا أمره أو فاتنا في أوانه رصدُ وتعقب مداخله.

ولست أريد أن أضيع سياق حديثي في وثائق التاريخ، ولكنني أردت لفت الانتباه إلى أخطاء التاريخ، وبين هذه الأخطاء ما يعتقده الآخرون أن المعتزلة كانت فرقة دينية وفلسفية أكثر منها سياسية، ولقد شاع هذا الخطأ حتى أصبح القارىء الذي يقرأ أصل (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) يظن أن ذلك أمر يتعلق بالموعظة الحسنة والدفع بالتي هي أحسن في مجال الأخلاق الفردية، أو الاجتماعية، على أكثر التقديرات تعميماً.. وأن أصل (المنزلة بين المنزلتين) هو جزء من جدل عقيم يجب أن يوضع حيث توضع آثار العصور القديمة، وليس فيه ما يستحق الاستلهام والاستيحاء.. وأن أصل (العدل) والقول بالاختيار، وإن كان مهماً فيما يتعلق بالحرية، إلا أنه قد اقتصر في البحث والتناول على حرية الفرد إزاء خالقه، وسلطان الخالق على الناس، من دون أن تمتد أبعاد هذا المبحث لتشمل المجتمع بما فيه من علاقات متعددة الميادين والمجالات.

هذا هو عمرو بن عبيد ينتقد أمراء عصره فيراهم عصبة من اللصوص، يسرقون حقوق الناس جهراً وعلانية، فلقد مر يوماً بجماعة يعكفون على شيء ويتجمهرون من حوله، فسأل: ما هذا؟ فقالوا له: إنه سارق يقطعون يده، فقال: لا إله إلا الله، سارقُ السرّ يقطعه سارقُ العلانية!

وفي عهدي هشام والوليد بن يزيد أخذ الناس يتداولون بقول العدل والتوحيد، فيسأل سائل إياس بن معاوية: ما يمنعك أن تصف القول في القدر، وقد أبصرته؟، فيقول: قد، واللهِ، ناظرتُ غيلان، وأبصرت الحق والعدل، ولكني اكره أن أصلب مثله.

ويشهد عمرو بن دينار، بمكة، رجلاً من أهل العدل والتوحيد تقوده الشرطة إلى السجن، فيسأل: ما لهذا؟ فيقول الناس: يتكلم في القدر. فيقول: أليس أضاف الخير إلى ربه، والشر إلى نفسه؟! قالوا: بلى. قال: فهو أولى بالحق منكم. فيقولون له: فما يمنعك أن تتكلم؟!

فيقول: أخشى أن يُصنَعَ بي ما صنع بهذا!

وهكذا.. مشهد واحد يكفي لرسم ذلك الواقع المأساة!

اجتهد المجتهدون.. وتفلسف المتكلمون.. وتوسع الفقهاء في الأخذ بالرأي والقياس ومصادر الاجتهاد والاستقراء والاستدلال والاستنباط والمصالح المرسلة حتى بلغ بالإمام أبي حنيفة قوله: (هذا رأيي ومَنْ جاءكم بخيرٍ منه فاضربوا رأيي عرض الحائط).. وعلى الطرف الآخر كان أصحاب كتب السنن والصحاح والسير والمغازي يدققون في الحديث في سنده ورجاله، جرحاً وتعديلاً، ويعرضونه على القرآن والعقل لكي يتبينوا صحة الحديث من وضعه. ولقد انتقلت عدوى الوضع في الحديث إلى المذاهب الفقهية والكلامية، والوعاظ الذين يأتون بكل غريب ليستميلوا العوام بقصص مكذوبة منسوبة إلى النبي ﷺ، وشارك في الوضع الزنادقة، كعبد الكريم بن أبي العرجاء الذي اعترف حين قدم للقتل أنه وضع أربعة آلاف حديث، فكان لا بد أن يقوم علماء يروعهم هذا كله إلى حد أن الإمام البخاري حين جمع الحديث وصححه وجد أن الأحاديث المتداولة بين الناس تربو على ست مئة ألف حديث لم يصح لديه منها أكثر من أربعة الآف حديث، وأن أبا داود لم يصح لديه من خمس مئة ألف حديث غير أربعة ألآف وثماني مئة فقط.

وهكذا وهكذا وهكذا.. ظهرت - على هذا النحو - المدارس الكلامية في نهايات القرن الأول وبدايات القرن الثاني الهجري، كانت أشهرها: (القدرية) التي قادها (معبد الجهني) وخلاصتها الحرية الإنسانية والقدرة على العمل وتأويل الصفات الذاتية ونفي الصفات المعنوية.

ثم - بعد ذلك - تلتها (المدرسة الجبرية) التي فلسف أفكارها (الجهم بن صفوان) وخلاصتها: أن الإنسان كائن مُسَيّر لا حولَ له ولا قوة، وبذلك فإنها قد نفت عنه الاختيار.

وإذا كانت المدرستان (القدرية) و(الجبرية) قد تطرفتا في الرأي.. فالأولى نفت العلم الأزلي عن الله وقدرته.. وانتهت الثانية إلى المساواة المجحفة بين الإنسان المدرك العاقل وبين الجماد الذي لا يعقل.. فقد جاء (المعتزلة) من بعد الإثنتين بمنطق جديد، ووضعوا لهم قواعد عامة في نقد العقائد، يحاولون التوفيق بين السلفية النقلية من جهة وبين الدليل العقلي من جهة أخرى، ويبدأون ثورتهم العقلية بالهجوم الكاسح على مناطقة المسلمين وفلاسفة الإغريق.

ونشب نزاع بين الأشاعرة والمعتزلة، وتعقدت الأمور أكثر وأكثر وتأزمت فقد كانت هناك أوراق متشابكة، ثم زاد الطين بلة الخصومة التي انفجرت بين الغزالي وابن رشد، عندما وضع الغزالي كتابه الأشهر (تهافت الفلاسفة) انتقد فيه أرسطو نقداً شديداً لرأيه بقدم العالم، وبإنكار الروح والعقل والشخصية الإنسانية.. فتصدى له ابن رشد بكتاب ضخم سماه (تهافت التهافت).. وكانت هذه فاتحة الخلافات الكبرى.

والحق، أن ابن شد وقع في أخطاء عديدة بينها أنه أولع بفلسفة أرسطو وشرحها، على ما روي عنه، شروحاً ثلاثة: شرحاً مختصراً كان الكلام فيه لابن رشد، وشرحاً متوسطاً كان ابن رشد يتناول فيه عند مطالع الفصول، فقرات من كلام أرسطو ويشرحها، ومنها شرح مطول كان يذكر فيه كلام أرسطو فقرة تلو فقرة ويشرحها، والحال أن ابن رشد إنما كان في كل ذلك يفسر كلام أرسطو.

ومن سوء الحظ، أن ابن رشد وقع في أخطاء الترجمة، ذلك أنه لم يأخذ فلسفة أرسطو عن كتبها اليونانية، بل إنه أخذها معربة مخلوطة بما كتبه الاسكندر الافروديسي، وثامسطيوس الاسكندري. ثم لما أخذ الافرنج فلسفة ابن رشد، لم يأخذوها من كتبه العربية، بل أخذوها من المترجمات اللاتينية، ومن هنا جاء الخلط بما وقع من الخطأ في هذه السلسلة الطويلة من الترجمة والتعريب.. خلط بين آراء ابن رشد.. وآراء

أرسطو.. وآراء أفلاطون.. وآراء الأفلاطونية الحديثة، ولقد نتج عن هذا الخلط عدم الفهم الذي لم يخلق سوء الفهم فحسب ولكن خلق ما هو أخطر.

أليس من سوء الفهم أن يرمي فيلسوفُ اللاهوت توماس الإكويني ابن رشد بالإلحاد؟.. ثم إنه يحمل عليه حملة عاصفة هوجاء بلغ من اشتهارها بين الناس في اوروبا، أن أحد المصورين وضع صورة كبرى جعل فيها (أكونياس) على كرسي عال، وابن رشد ساقطاً على الأرض أمامه، إشارة لانتصار (اكونياس) على ابن رشد.

والغريب أن هذه الصورة ضمت أيضاً صورتي أفلاطون وأرسطو وهما قريبان من اكونياس، وفي يد كل منهما كتاب يصعد منه شعاع إلى رأسه، تنويهاً بما استفاده من فلسفتهما، وما قبسه من نورهما. أما ابن رشد، الذي لم يكن عمل سوى شرح أرسطو، فقد جعله المصور مطروحاً أرضاً، كالمغلوب المقهور.. والحال أن توماس اكونياس إذا كان قد انتصر عندما قال بوجود الله ووحدانيته وحدوث العالم، فإنما انتصر على أفلاطون وأرسطو، وأنه انتصر بالأدلة التي اتفق عليها ابن رشد مع الغزالي، فكيف يشير المصور إلى اكوانياس تلقى النور من أفلاطون وأرسطو.. أليس هذا غريباً ممعناً في غرابته؟.. وهل ذلك محتمل.. أو هل هو ممكن؟

كان ذلك نوعاً من المشاعر الهستيرية شديدة العدوى.. فنحن حين نجد رجلاً يستغرق على نفسه من الضحك - مثلاً - لا نستطيع أن نملك أنفسنا، فنجد أننا نجاريه فيما يفعل - بالعدوى - حتى من دون أن نعرف ما الذي أضحكه؟!

إن مثل هذا الشعور يحدث لنا إذا شاهدنا مسرحية أو فيلماً محبوك التمثيل والإخراج.. نغادر مقاعدنا بعد أن تضاء الأنوار في المسرح أو السينما ونحن مأخوذون بالجو الدرامي للقصة.

ولقد أصاب هذا النوع من العدوى عقول البشر.. فهذا أرسطي، وهذا أفلاطوني، وهذا سلفي، وهذا كلامي، وهذا بين بين، وهذا إشراقي، وهذا معتزلي، وهذا قدري، وهذا جبري، وهذا مرجئي، وهذا أشعري، وهذا خارجي، وإلى آخره

إلى آخره، من الأهواء والملل والنحل والمعتقدات والمذاهب والفرق.

ولعلنا نتفق أن هذا الحال يختلف كثيراً عن حال آخر يطلقون عليه مجازاً تعبير (حوار الطرشان). ففي (حوار الطرشان) يتكلم الجميع وكلهم لا يسمعون. ولكن المشكلة في حال تعطل الحوار في الصراعات الكبرى أن الجميع يتكلمون ولكن الجميع يسمعون، وما يسمعونه لا يعني الشيء نفسه بالنسبة لكل طرف منهم.. وهكذا ينشأ سوء الفهم.

إلى جانب ذلك كله - وكله وارد - ينشأ سوء الفهم أيضاً نتيجة للاختلاف بين منطق ومنطق مما تصدر عنه التصرفات. ومن الطبيعي أن كل تصرف يصدر عن منطق سواء اتفقنا معه أم لم نتفق.

وبعض من سوء الفهم - على سبيل المثال - القصة المشهورة عن المكتشف البريطاني الشهير (توماس كوك) حين وقعت أنظاره على استراليا لأول مرة ونزل على شاطئها الغربي، وراح يسجل كل ما يراه من تضاريس الأرض وأشكال النبات وأنواع الحيوان.. ولمح (كوك) من ضمن ما لمح حيواناً غريباً يقفز ولا يجري لأن اقدامه الخلفية طويلة، في حين أن اقدامه الأمامية شديدة القصر.. وسأل (كوك) أحد السكان بالإشارة عن اسم هذا الحيوان، ورد ساكن استراليا القديم: كانجارو!!

وسجلها (توماس كوك) أمام وصف الحيوان: حيوان غريب اسمه (كانجارو). وشاع الاسم، والتصق بحيوان (الكانجارو) الاسترالي المشهور.

ومرت عشرات السنين، ثم تبين أن كلمة (كانجارو) في لغة هذه القبائل الاسترالية التي سكنت استراليا قديماً معناها: لا أعرف!!

كان هذا هو بعض مما يخلقه سوء الفهم.. وليس هذا مهماً، لكن المهم أنني لست أدري لماذا لا يزال بعضنا يتكلم في الفكر الإسلامي بلغة الـ (كانجارو)!!

ألا يستطيع أن يفعل شيئاً لتصحيح هذا الخطأ؟!

هذا هو السؤال؟ الكبير والخطير.

(٦)

في هذه الوقفة، أتصور أنه قد يكون من الضروري الآن توجيه بعض الاهتمام إلى (الفقه الإسلامي).. وبالطبع، فإنني لا أنوي عرض قصة (تاريخ الفقه)، فهذه القصة لها رواة غيري أَعرفُ بتفاصيلها وأقدرُ على روايتها، ولهذا فإني أكتفي بالتركيز على بعض المقاطع، كما يفعل أحدنا حين يقرأ شيئاً فيختار فقرات منه يضع تحتها خطوطاً تذكره بالعلامات البارزة في سياق ما يقرأه.

وإذا فعلنا ذلك، فسوف يلفت نظرنا أن الفقه الإسلامي كان قد مر في ستة أدوار وهي تبدأ بعصر النبي ﷺ، ثم تتصل بعد ذلك بعصر الخلفاء الراشدين وعصر ما بعد الخلفاء الراشدين إلى القرن الثاني للهجرة (قبل نهاية العصر الأموي) ومن بدايات القرن الثاني الهجري إلى أواسط القرن الرابع الهجري، وأخيراً ترتبط من أواسط القرن الرابع الهجري إلى سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هجريه وتمتد من سقوط بغداد إلى عصرنا الحاضر.

وربما كان علينا أن نفرق بين (مقدمات) الفقه الإسلامي وبين (مداخله)، مع العلم بأن العلاقة متصلة بينهما فأحدهما يفضي إلى الآخر ويقود إليه، لكن تعقب الخطى على المنعطف الذي سارت عليه وقائع هذا الفقه يصبح أمراً ضرورياً حتى وإن أصبح هذا الجهد من نوع ما يقوم به قصاصو الأثر في الصحراء.

وطبقاً لوقائع التاريخ - كان الفقه في عصر النبي محمد ﷺ هو فقه الوحي، وكانت الأحكام الشرعية تتنزل إما بلفظها (القرآن)، أو بمعناها (السنة)، وبالتالي فإن مصدر الأحكام الشرعية جميعاً هو (الوحي).

والثابت أن نبينا الأكرم محمداً ﷺ اجتهد في عصره، وأنه فتح للصحابة أبواب الاجتهاد، ومن ذلك - على سبيل المثال - اجتهاده في أخذ الفداء من أسرى بدر، ومنه قوله ﷺ لإحدى زوجاته: (لولا أن قومك حديثو عهد بكفر لبنيت الكعبة على قواعد إبراهيم)، وكذلك قوله: (لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك في كل

صلاة)... وعندما بعث النبي ﷺ معاذاً إلى اليمن، قال له: كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟. قال: أقضي بما في كتاب الله. قال فإن لم يكن في كتاب الله؟. قال: فبسنة رسول الله. قال: فإن لم يكن في سنة رسول الله؟ قال: أجتهد رأيي لا آلو - أي لا أقصر - فضرب رسول الله ﷺ على صدر معاذ وقال: الحمد لله الذي وفق رسولَ رسول الله لما يرضي الله ورسوله.

ولقد اتخذ النبي ﷺ كتاباً يكتبون له ما ينزل من القرآن، ومن هؤلاء زيد بن ثابت وعلي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان وغيرهم.. كما أن بعض الصحابة كان يكتب لنفسه ما تتيسر له كتابته من آيات القرآن الكريم.. واللافت للنظر، أن الرسول الأكرم ﷺ انتقل إلى الرفيق الأعلى والقرآن محفوظ في الصدور، مدوّن كله في الرقاع ونحوها، إلا أنه لم يكن مجموعاً في مصحف واحد وإنما كان مفرقاً حتى تم جمعه في مجموعة واحدة - أي في مصحف واحد - في خلافة أبي بكر.

أما السنة فإن النبي ﷺ لم يتخذ كتّاباً يكتبونها ولم يأمر بكتابتها، بل إنه نهى عن كتابتها في بادىء الأمر، كما جاء في الحديث الصحيح قوله: (لا تكتبوا عني، ومَنْ كتب عني غير القرآن فليمحه وحدثوا عني ولا حرج. ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار). ولعل هذا النهي محمول في بادىء الأمر بسبب خشية اختلاط السنة بالقرآن، لكن لما أمن اللبس والخلط بين السنة والقرآن فقد أبيح لهم أن يكتبوها، وهكذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يكتبون ما يسمعون من النبي ﷺ، وكان عبد الله بن عمرو بن العاص واحداً من هؤلاء، على أن السنة، وإن لم تدون، فقد كانت محفوظة في صدور الصحابة وبلّغوها لغيرهم ولم يفقد منها شيء.

ثم انقضى عهد النبوة، وجاء بعده عصر الخلافة الراشدة، وفي هذا العصر ظهر الإجماع مصدراً من مصادر الفقه.. وكان الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه يجتهد برأيه ويقول: هذا رأيي فإن يكن صواباً فمن الله وإن يكن خطأ فمني واستغفر الله.. واجتهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه برأيه وكان يقول لكاتبه: قُلْ هذا ما رأى عمرُ بن الخطاب، وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري يقول: اعرف

الأشباه والأمثال وقس الأمور.

وفي عصر الخلافة الأموية سنة ٤١ هجرية، توسع الفقه وكثرت الخلافات في مسائله وشاعت رواية الحديث، التي كان من أثرها الاستنباط من السنة وشيوع الوضع، ليتكون علم جديد ليس له نظير، وهو ما يسمى بعلم (الجرح والتعديل)، أو (علم الرجال)، ثم بعد ذلك - ظهور مدرسة أهل الحديث في المدينة تقابلها مدرسة أهل الرأي في الكوفة. . وكان فقهاء المدينة لا يفرضون الوقائع ثم يبحثون عن أحكامها بخلاف فقهاء الكوفة الذين كانوا يفرضون مسائل لم تقع ويستخرجون لها الأحكام بآرائهم.

ولعل مجموعة من الأسباب والدوافع تقف وراء ظهور هاتين المدرستين، وأول الأسباب: أن فقهاء المدينة ورثوا فقهاء الصحابة المقلين من الرأي، أو الكارهين له، الواقفين عند حد النصوص لا يتجاوزون حدها، كعبد الله بن عمر، في حين أن فقهاء الكوفة قد تأثروا بطريقة عبدالله بن مسعود، وكان ابن مسعود ميالاً إلى الرأي يأخذ به ولا يهابه حيث لا نص في المسألة.

ثم - وهذا ثاني الأسباب - أن السنة كانت في الكوفة أقل حظاً مما كانت في المدينة، ومع قلة السنة تظهر الحاجة إلى الرأي، أضف إلى ذلك شيوع الوضع في الحديث. وثالثاً، أن الحياة في المدينة كانت بسيطة ولا تتجدد الوقائع إلا بقدر قليل، وبالتالي فإن الحاجة إلى الرأي لا تظهر إلا بقدر قليل أيضاً. وذلك هو بعكس الحياة في الكوفة تماماً، فالعراق هو بلد ذو حضارة عمرها آلاف من السنين وتيارات فكرية وطبائع مختلفة، وهذا كله يكثر من الوقائع التي تحمل الفقيه على الرأي والاجتهاد.

والمحزن أن الدور الثالث للفقه الإسلامي انتهى مع نهاية عصر بني أمية، والسنة النبوية باقية على حالها لم تدون، باستثناء محاولات بسيطة لتدوينها، ومنها محاولة عمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه الذي كتب إلى عامله في المدينة أبي بكر محمد بن عمر بن حزم: أن انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ أو سنته فاكتبه- فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء. . لكن الموت كان أسبق إلى عمر قبل أن يبدأ ابن حزم في عملية التدوين.

وجاء الدور الرابع - منذ بداية القرن الثاني الهجري حتى منتصف القرن الرابع - فازدهر الفقه حتى سمي هذا العصر بـ (عصر الفقه الذهبي)، حيث الخارجون من الكهف أساطين فاتحون في الفقه، وفاتحون في الفلسفة، وفاتحون في العلم، وفاتحون في الثقافة وفي الحضارة، ولمع نوابغ الفقهاء، والمجتهدون العظام الذين أسسوا مذاهبهم الفقهية، ودونت السنة النبوية وعُرِفَ صحيحها وضعيفها وكان الكل يمارس حق الاجتهاد.

والحق، أن الخلفاء العباسيين الأوائل اعتنوا بالفقه والفقهاء عناية خاصة، وذلك واضح عندما نقرأ أن الرشيد، وهو الخليفة المشهور، يطلب من أبي يوسف (صاحب أبي حنيفة)، وضع قانون إسلامي للأمور المالية تعتمده الدولة، فيستجيب أبو يوسف لهذا الطلب ويلبي رغبة الخليفة، ويضع كتابه الشهير (الخراج).

وعلى هذا النحو - كان أبو جعفر المنصور يحاول أن يجعل (موطأ الإمام مالك) حجة على الجميع إلا أن الإمام قد رفض هذا المشروع لأن فقهاء الأمة تفرقوا في الأمصار، وكل عنده علم وفقه وكل على حق، ولا ضرر ولا ضير في اختلافهم.

لكن ازدهار الدور الرابع مالت شمس حضارته من منتصف القرن الرابع حتى سقوط بغداد إلى الغروب، فإذا الفقه يركد ويضعف ويهتز، وإذا الفقهاء مقلدون لا يقبلون رأياً من أحد، وحالهم حال النيام الذين متى ماتوا انتبهوا، انتشروا وتعاونوا وتواصلوا بالخرافة وبالجهل وبالغلو وبأن الدنيا قائمة على قرن ثور.. وأكثر من ذلك وصل بهم الحال إلى الإفتاء بسد باب الاجتهاد. كان السلطان السياسي قد ضعف وانهار والدولة لم تعد دولة، ولم يبق للفقهاء غير تعليل الأحكام واستخلاص قواعد الاستنباط.

لكن (الاجتهاد) حق الفرد في حرية التفكير، أو بتعبير أخر اعترافه بحق الفرد في التفكير المستقل، الأخذ بالنتائج التي يهديه إليها بحثه، غير ملتفت إلا لصواب ضميره، وقد اعترف بـ (الاجتهاد) مصدراً من مصادر القانون الإسلامي، وهو مبدأ انفرد بتقريره الإسلام ليس له في التاريخ مثيل، إلا بعد مضي عهود طويلة، بعد نحو ألف عام - أي

في مطالع عهد النهضة في اوروبا حين بدأت حركة (الإصلاح الديني) ونهض (لوثر) وأتباعه ينادون بحق الفرد في فهم النصوص المأثورة، وتكوين حكم لنفسه، ولم يكن (رجال الدين) يسمحون قبل (لوثر) بمثل هذا الحق في التفكير؟.

إن الشلل الذي أصيب به الفكر الإسلامي في ظروف وأعقاب سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هجرية يقود إلى استنتاجات خطيرة حين يطرح السؤال الحيوي التالي:

- ما هو السبب؟ ولماذا بدا الفكر الإسلامي كله عاجزاً من وقتها حتى الآن، فاقداً لقدرته على المنطق فضلاً عن قدرته على الحركة والفعل.. ثم من هو ذلك الذي يملك القدرة على التصدي للطوفان؟.

صحيح إن سقوط بغداد هز الأمة إلى الأعماق هزاً، ونقلها من مرحلة الهجوم الحضاري إلى مرحلة الدفاع عن مجرد وجودها. لكن من المحزن أن يقف الفقهاء والمفكرون وكأنهم شخوص في مأساة إغريقية كتبتها الأقدار ولا فكاك منها بمنطق أن (ما هو مكتوب على الجبين لا بد أن تراه العين)!.

وأريد أن أقول من منطلق إسلامي معتدل، لا أثر فيه لجاهلية النعرات المذهبية وجهالتها، إن الفكر الإسلامي في صميم الأمر غير ملوم، فلقد كان هناك من تولوا غسل مخه لسنوات طويلة، لكن فقهاء الأمة ومفكريها هم الملومون!.

ويوم أغرق التتار بغداد في بحر من الدم (الدور السادس)، لم ينهض الفقه من كبوته ولم يخرج الفقهاء من كهفهم، فالتقليد قد فشا وشاع بينهم حتى صار أمراً مألوفاً لا يدعو إلى العجب، على الرغم من وجود أساطين هنا وهناك رفضوا التقليد، ونادوا إلى الاجتهاد المطلق، وتلمس الأحكام من الكتاب والسنة من دون التقيد بمذهب معين. وكان من أبرز هؤلاء الأساطين ابن تيمية وتلميذه ابن القيم والشوكاني مؤلف (نيل الأوطار) وغيرهم.

لكن هؤلاء كانوا فئة قليلة، لا بل إنهم أنفسهم لم يسلموا من نقد فقهاء هذا العصر الذين اتجهوا إلى التأليف، وكان الطابع العام في تأليفهم الاختصار الذي وصل

إلى درجة الإخلال بالمعنى وخفاء المقصود، وصارت العبارات أشبه شيء بالألغاز. هذه المختصرات، والتي سميت بالمتون، احتاجت إلى شروح توضح معانيها وتزيل الإبهام والغموض عن عباراتها، فقام مؤلفوها أو غيرهم بشرحها فظهرت الشروح إلى جانب المتون. ثم ظهرت إلى جانب الشروح الحواشي وهي تعليقات وملاحظات على الشروح. إنه حقاً عصر (المتون والشروح والحواشي)!

وباختصار، فقد حمل الإسلام رجال كان أبرزهم في التفسير: علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود وأبيّ بن كعب وزيد بن ثابت في صدر الإسلام، وفي عهد التابعين كان هناك: سعيد بن جبير وجابر بن يزيد ومجاهد ابن جبر المكي وعطاء بن أبي رباح وعكرمة وطاووس بن كيسان اليماني، ثم سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح واسحق بن راهويه وتطورت علميات الفقه الإسلامي وتجددت وأبدعت.

وخرجت على الملأ تفاسير متعددة للقرآن الكريم ومختلفة، ولعل من أشهر هذه التفاسير: تفسير الطبري المعروف بـ (التفسير الكبير)، ثم تفسير ابن ماجه وتفسير النيسابوري وتفسير القرآن العظيم لابن كثير.

أما في الحديث، فالثابت أن أكثر من روى عن رسول ﷺ أحاديثه: أبو هريرة والسيدة عائشة ثم عبد الله بن عمر ثم أنس بن مالك وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم.. ومن أشهر كتب الحديث كتاب (الجامع الصحيح) للإمام البخاري وصحيح الإمام مسلم وموطأ الإمام مالك بن أنس ومسند الإمام أحمد وسنن أبي داود وسنن ابن ماجه وسنن الترمذي.

والذين حفظت عنهم الفتوى من صحابة رسول الله ﷺ أكثر من مئة وثلاثين بين رجل وامرأة.. وكان المكثرون منهم في الفتوى سبعة هم: عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وعائشة وزيد بن ثابت وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر. والمتوسطون منهم.. أبو بكر الصديق وعثمان بن عفان وأبو موسى الاشعري وسعد بن أبي وقاص وسلمان الفارسي رضي الله عنهم أجمعين.

ونبغ في الفقه فقهاء ودعاة كبار أمثال: الإمام أبي حنيفة، والإمام مالك، والإمام الشافعي، والإمام أحمد بن حنبل، والإمام جعفر الصادق، وكذلك ابن حزم، وشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم.. وآخرون كانوا حقاً من ألمع الفقهاء والمجتهدين.

هكذا كانت المقدمات.. وهكذا كانت المداخل.

وفي الحقيقة أننا لو عدنا إلى البدايات الأولى على الصراط المستقيم نفسه الذي بدأنا منه فاتحة مقالنا، نستعيد الصورة الكاملة أو شبه الكاملة لما حدث في تاريخنا البعيد من تحولات وصراعات كبرى، لوجدنا أن القصة معقدة وبعض رجالها أكثر تعقيداً من كل ما تستطيع الوقائع أن ترويه من كل ما تقدر الكلمات أن تنبىء به.

لا بد أن يكون هناك شيء وراء هذا الذي حدث كله.. شيء لا نعرفه.. شيء جرى ترتيبه والإعداد له سلفاً. إن مشاكل تأريخنا عويصة ومعقدة، ولم يكن ممكناً أن يكون هناك قفز فوقها كما رأينا ونرى إلا على أساس حساب جرى تقدير نتائجه مقدماً.

إنني أريد، أن أضع صورة متكاملة للتجربة كلها: الضوء والظل، النجاح والفشل، الأصيل والدخيل في كل ما جرى وكان. وفي كل الأحوال - أؤمن - أن الخلافات والصراعات التي ظهرت في تاريخنا لم تكن مجرد صراعات على فكرة معينة، وإنما كانت قصداً مقصوداً. حدثت نتيجة تناقضات ومواريث اجتماعية وسياسية مختلفة.

وإنني أفهم تماماً لماذا يحاول الآخرون تضخيم الأخطاء وتزييف التاريخ، ولكنني لا أستطيع أن أفهم - حقيقة - لماذا يتحتم علينا أن نقدم مقابلاً لكل ما حدث.. إن ما حدث في تاريخنا كان مهولاً بلا شك، ولكن المسائل لا بد أن تكون محددة.

فما الذي حدث وكان؟

كانت الدروب والهويات في الأمة قد افترقت قبل ظهور (الخوارج) سنة ٣٧ هجرية ببيعتهم (عبد الله بن وهب الراسبي). وكان الفكر الخارجي- إذا جاز لنا أن

نسميه فكراً - قد جاء في لحظة من اللحظات، استجابة لعصبية مجنونة، وكان فكراً انعزالياً غوغائياً متزمتاً، ليس له قيمة، ولم تكن له جذور عميقة، ولد في أوساط شباب أقرب إلى المراهقة، وفي جيل قبلي أقرب إلى الجاهلية.

قال ابن تيمية في الخوارج: (هم أول من كفّر أهلَ القبلة بالذنوب، بل بما يرونه هم من الذنوب، واستحلوا دماء أهل القبلة بذلك).

ثم ظهر إلى جانب مسألة التكفير رأي قائل: إن الإنسان حر في أفعاله، وأن إرادته غير محدودة أو مرهونة بظرف أو ضرورة، ولا صلة لها بقانون أو حتم تاريخي، وكان ذلك هو رأي معبد الجهني، أسس (القدرية) في نهايات القرن الأول الهجري، فأسند أفعال البشر إلى قدرتهم، وأنه ليس لله قدرة ولا مشيئة ولا قضاء.

وفي هذه الفترة نفسها، ظهرت (المرجنة) برأي يقول: أن الإيمان نُطق باللسان وتصديق بالقلب فقط، وبعضهم يقصره على نطق اللسان، وبعضهم الآخر يكتفي في تعريفه بأنه التصديق، وتطرف آخرون فقالوا: إنه المعرفة. وكان أول من قال بالإرجاء هو (ذر بن عبد الله المذحجي) ثم سار على منهجه (غيلان الدمشقي).. وهكذا برز مرجئون آخرون.

ولم يتوقف الحال عند هذا الحد، ففي بدايات القرن الثاني الهجري كان إثنان يناديان إلى (التعطيل) (الجعد بن درهم والجهم بن صفوان) ولمع (الجهم بن صفوان) برأيه القائل: الإنسان منفعل أبداً، ولا إرادة له ولا اختيار، وإنما كل صغيرة أو كبيرة في وجوده هي مقدّرة له وعليه منذ الأزل وحتى الأبد ولا إرادة له في رفضها أو قبولها، بل لا إرادة للإنسان بجوار إزادة الله، وكان هذا هو باختصار مذهب الجبرية.

ثم ظهرت (المعتزلة) التي نادت بالإرادة الإنسانية المطلقة، لأن الله سبحانه خلق الإنسان حراً مختاراً، وهذه الحرية هي أساس التكليف، الذي يكون - طبقاً لمفهومه - الحساب والعقاب.. ثم أثيرت مسألة صفات الله وكلامه، ومسألة خلق القرآن، أهو مخلوق أم قديم؟

والواضح أن نشأة الاعتزال كانت ثمرة تطور تاريخي لمبادىء فكرية وعقدية وليدة النظر العقلي المجرد في النصوص الدينية، ولعل بعض الكتاب والمفكرين في زماننا الحاضر يحاولون إعادة الفكر الاعتزالي بلبوس جديد، وأسماء جديدة مثل. . العقلانية أو التنوير أو التجديد أو التحرر الفكري أو التطور أو المعاصرة أو التيار الديني المستنير أو اليسار الإسلامي. إلى آخر هذه الأسماء.

ومن دعاة الفكر الاعتزالي الحديث سعد زغلول، وقاسم أمين مؤلف كتاب (تحرير المرأة) و(المرأة الجديدة)ن ولطفي السيد (أستاذ الجيل)، وطه حسين (عميد الأدب العربي)، وزكي نجيب محمود صاحب نظرية (الوضعية المنطقية) فهو يرى أن الإعتزال جزء من التراث ويجب أن نحييه، وعلى أبناء العصر أن يقفوا موقف المعتزلة من المشكلات القائمة، بحسب ما جاء في كتابه (تجديد الفكر العربي)، وهناك أحمد أمين الذي كتب في (ضحى الإسلام) يقول: (في رأيي أن من أكبر مصائب المسلمين موت المعتزلة)، والدكتور محمد فتحي عثمان في كتابه (الفكر الإسلامي والتطور)، وفهمي هويدي، والدكتور محمد عمارة - صاحب النصيب الأكبر في إحياء تراث المعتزلة والدفاع عنه - وخالد محمد خالد، والشيخ يوسف القرضاوي، ومحمد سليم العوا، وآخرون اجتهدوا بعقولهم للوصول إلى الحقيقة، فالعقل هو المحك والمقياس وهو أصل الأدلة وأساسها لأن دلالته يقين.

وبالتأكيد فإنه من الصعب على أي محلل أن يتصور العوامل والاعتبارات التي دارت يومها أو أن يقطع كيف تفاعلت هذه الخمائر كلها؟

بالمقابل من هذا كله، وعلى الطرف الآخر من المعتزلة، كان أبو الحسن الأشعري، الذي عاش في كنف أبي علي الجبائي (شيخ المعتزلة في عصره) وتلقى علومه حتى صار نائبه، وقاد الفكر الاعتزالي أربعين سنة، قد ثار على مذهب الإعتزال الذي كان يدافع عنه، بعد أن اعتكف في بيته خمسة عشر يوماً، يفكر ويدرس، حتى أعلن البراءة من الإعتزال وخط لنفسه منهجاً جديداً في تأويل النصوص بما يتفق مع أحكام العقل.

واللافت للنظر أنه بعد رحيل أبي الحسن الأشعري إلي العالم الآخر، فإن المذهب الأشعري أخذ أكثر من طور، وتعددت الاتجاهات والمناهج في أصول المذهب وعقائده، ولعل السبب في هذا التعدد والاختلاف يرجع إلى أن المذهب الاشعري لم يؤسس في بدايته على منهج مؤصل، بل تباينت المواقف واختلفت الاجتهادات بين اعتماد النص واستخدام علم الكلام لتأييد العقيدة والرد على المعتزلة، وهذا واضح من خلال دخول المذهب في ثلاثة أطوار: طور الاقتراب من أهل الكلام والإعتزال، وطور الدخول في التصوف، وطور الدخول في الفلسفة بوصفها جزءاً من هذا المذهب.

وهكذا نرى أن الاشاعرة قد قسموا أصول العقيدة بحسب مصدر التلقي إلى ثلاثة أقسام:

- القسم الأول، مصدره العقل وحده، ومنه باب الصفات، ولهذا فإنهم يسمون الصفات التي تثبت بالعقل (عقلية)، وهم في هذا القسم لا يتوقفون على الوحي، وإنما إذا اعترضتهم صفات خبرية دل عليها القرآن والسنة فإنهم - في هذا الحال - يلجأون إلى التأويل.

- القسم الثاني، ومصدره العقل والنقل، على خلاف بينهم.

- القسم الثالث، مصدره النقل وحده (السمعيات ذات المغيبات من أمورالآخرة كعذاب القبر والصراط والميزان).

وهي أمور لا يحكم العقلُ باستحالتها.. والحاصل أنهم في صفات الله جعلوا العقل حاكماً، وفي إثبات الآخرة جعلوا العقل عاطلاً، وفي الرؤية جعلوه مساوياً..

والأشاعرة مع الفلاسفة والمتكلمين في الاستدلال على وجود الله، فهم يقولون: إن الكون حادث ولا بد له من محدث قديم، ومن صفات القديم مخالفته للحوادث وعدم حلوله فيها، ومن مخالفته للحوادث الإثبات بأنه ليس بجوهر ولا جسم ولا في جهة ولا في مكان. فأنكروا صفات الرضا والغضب والاستواء بشبهة نفي حلول

الحوادث في القديم بهدف أن يردوا على القائلين بقدم العالم.

والأشاعرة في التوحيد، ينفون التثنية والتعدد بالذات وينفون التبعيض والتركيب والتجزئة، ويقولون: إن الله واحد في ذاته، واحد في أفعاله، واحد في صفاته. فهم - على هذا النحو - أنكروا صفات الوجه واليدين والعين لأنها - بحسب تصورهم - تدل عل التركيب والأجزاء. وهم يعتقدون بتأويل الصفات الخبرية كالوجه واليدين والعينين والقدم والأصابع وكذلك صفتي العلو والاستواء.

والأشاعرة في الإيمان واقعون تحت مطرقة المرجئة التي يكفي النطق عندها من دون العمل بصحة الإيمان، وسندان الجهمية التي تقول بكفاية تصديق القلوب.

والأشاعرة في قضية التكفير مضطربون، فتارة يقولون: لا نكفر أحداً، وتارة يقولون: لا نكفّر إلا من كفّرنا، وتارة يقولون بأمور توجب التفسيق والتبديع، أو بأمور لا توجب التفسيق والتبديع.

والأشاعرة في مسألة القرآن يرون أنه ليس كلام الله على الحقيقة ولكنه كلام الله النفسي، وأن الكتب بما فيها القرآن مخلوقة.

والأشاعرة - أضف إلى كل ذلك - يؤمنون بأن كل موجود يصح أن يرى، والله موجود، يصح أن يرى وهم يستدلون بقوله سبحانه: - وجوه يومئذ؟؟ ناضرة إلى ربها ناظرة-.

والأشاعرة يحصرون دلائل النبوة بالمعجزات التي هي الخوارق، ويرون أن صاحب الكبيرة إذا خرج من الدنيا غير تائب فإن حكمه إلى الله، إما أن يغفر له برحمته، وإما أن يشفع فيه النبي ﷺ، ويعتقد الأشاعرة أن قدرة العبد لا تأثير لها في حدوث مقدورها ولا في صفة من صفاته، وأن الله أجرى العادة بخلق مقدورها مقارناً لها، فيكون الفعل خلقاً من الله وكسباً من العبد لوقوعه مقارناً لقدرته. والأشاعرة ينفون الحكمة والتعليل في أفعال الله مطلقاً، ولكنهم يقولون: أن الله يجعل لكل نبي معجزة.

والأشاعرة - بعد هذا كله - يؤمنون بأحوال البرزخ، والحشر والنشر، والميزان،

والصراط، والشفاعة والجنة والنار، ويرون أن الخلافة في قريش، وأن الصلاة تجوز خلف كل بر وفاجر، وأنه لا يجوز الخروج على أئمة الجور، والإيمان والطاعة بتوفيق الله، والكفر والمعصية بخذلانه.

والحاصل، أن الأشاعرة تأثروا ببعض أفكار ومعتقدات الجهمية من الإرجاء والتعطيل، وتأثروا بالمعتزلة والفلاسفة في مسائل نفي بعض الصفات وتحريف نصوصها، ونفي العلو والصفات الخبرية، وتأثروا بالجبرية في مسألة القدر، لكن هذا التأثير لم يمنع وقوفهم عند حدود الكتاب والسنة في كثير من المسائل والقضايا.

ولقد ظل الشك يغلب اليقين، واليقين يغلب الشك، في المعتقد الأشعري بين ثلاثة أطوار: طور الاعتزال، أو طور التصوف، أو طور التفلسف.. ومن ثم الانتهاء إلى حكم القرآن: وكان بعضهم ينجر رغماً عنه كأنه أسير لجام، يبحث عن أحوال الواجب (الله) وأحوال الممكن الوجود (ما سوى الله) من حيث المبدأ والمعاد بدليل عقلي أو سمعي أو وجداني.

و(صورة الحركة) - لكي نصل إلى موضوعنا الأصلي - أشبه ما تكون بالصورة الغريبة، أو هي كما تدعى في لغة التصوير والمصورين بـ (النجاتيف)!

أفكار لا تتحاور مع أحد. تُكلّمُ نفسها فقط لأنها في عزلة عن الباقين، تقول هي أنها عزلتهم، ويقولون هم أنهم عزلوها. وفي المحصلة النهائية فإن العزل قائم!

ونحن أين؟

هل نقف في انتظار هذا كله، كما فعل بطل قصة (في انتظار غودو) التي كتبها صمويل بيكيت، الذي طال انتظاره من أول سطر في القصة إلى آخر سطر فيها لم يظهر له قط لأنه لم يكن له وجود قط.

أو هل نتحرك؟

(٧)

كان الخلاف الذي انفجر بين النصيين والعقليين - إذا جاز لنا أن نسميه خلافاً - هو ضرورة من الضرورات التي فرضتها حتميات التاريخ. والواقع إنه لم يكن خلافاً بمعنى الخلاف الذي نفهمه، وإنما كان وجهات نظر بعضها أصاب وبعضها الآخر أخطأ، ونحن الذين وضعناها في إطار الخلاف.

وفي الحقيقة، فإن الحتمية التاريخية تلخص لنا، أن جميع حوادث التاريخ وجميع حوادث العالم وبخاصة أفعال الإنسان مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً محكماً وأن للعالم نظاماً كلياً دائماً لا يشذ عنه شيء في الزمان ولا المكان، وإن كل شيء فيه ضروري، كما أنه من المحال أن يكون اطراد الأشياء ناشئاً عن المصادفة والاتفاق.

كان حال الكل مثل رجل يمشي في الدنيا وسط الزحام، وهو ما زال يسأل نفسه: من أنا؟

إذا كان ما زال يسائل نفسه: (من أنا)؟ فكيف له أن يعرف ماذا يريد؟ وما هي وسائل تحقيق هذا الذي يريده؟ هل تتسع طاقته لإرادته فيصل، أو تضيق فيتوقف في منتصف الطريق؟ وكيف يراجع نفسه ليتأكد ويستوثق؟ وما هو المرجع والمعيار الذي يهتدي به ويقيس عليه؟

والواضح أن المشكلة بين النص والعقل في حقيقتها مشكلة (ظرفية)، وهي الوجه الآخر للمشكلة السياسية، فهي - على هذا النحو - ليست مشكلة أبدية، لكن المشكلة تتعقد وتستعصي حين يكون هناك الإصرار على أن النيزك ما زال نجماً، وعلى أن الوهج لم ينطفى، وعلى أن كتلة المعادن المختلطة لم تعد خامدة بلا حرارة أو إشعاع.

والواضح أيضاً، أن الواقع السياسي الذي عاشته الأمة هو الذي ساعد على

توسيع الهوة بين النصيين والعقليين، وكانت مباحث (الإمامة) هي المشكلة الكبرى التي دار حولها البحث السياسي في الإسلام وفاتحة الخلاف الكبير الذي قاد بالتالي إلى ظهور علم الكلام.

واللافت للنظر، أن مسألة (الإمامة) لم تكن مشكلة الإسلام وحده. ولعل المؤرخ يجد عند الدراسة المقارنة لتاريخ الفكر السياسي العام، نظائر لظاهرة (الإمامة) في الإسلام، وعلى سبيل المثال، فإن المشكلة الرئيسة التي تبلورت حولها الأبحاث عند الإغريق كانت هي مشكلة (العدالة) أو (الفضيلة)، وكان فلاسفة الإغريق يبحثون عن الرجل (العادل أو الفاضل) و(المدينة العادلة أو الفاضلة).. وفي العصور الدينية في أوروبا، فإن البحث تركز حول مسألة تجديد العلاقات بين السلطتين الروحية والزمنية، وراجت في عصور النهضة فكرة افتراض (العقود الاجتماعية)، ولم يكن ذلك - بالطبع - نوعاً من الهرطقة السياسية.

الظاهرة موجودة، والظاهرة متكررة عبر القرون الممتدة، من (أرسطو) إلى (ماكيا فيللي)، ولا شك أن صراع المجتمعات حول هذه الظاهرة قانون طبيعي وصحيح، ولا شك أن مطلب المجتمعات في المساواة والحرية قانون طبيعي وصحيح، ولا شك أن قمة رقي المجتمعات تتمثل في قدرتها على وضع كل هذه القوانين الطبيعية الصحيحة في إطار مؤسسات تحكمها شرائع ودساتير تتجاوز كل الأفراد.

هكذا، فعل الدافع السياسي فعله في الأمة، انقلبت الحقوق المقدسة إلى نوع من التعاويذ والتمائم والأصنام. قِبابٌ ليس تحتها أولياء!

وربما وجدنا أنفسنا الآن في حاجة إلى التفاته سريعة إلى الوراء، لنتذكر أن الواقع السياسي هو الذي أثار معضلتي الحرية والإرادة، فنودي بحتمية التغير وواقعية قوانين الحركة وضرورتها ثم إمكانية عقلانية الموجود وامتلاك حقائقه.

ومن الطبيعي أن تكون النتيجة المنطقية هي وضع الإنسان من حركة الوجود بموضع الفاعل، المدبر، القادر، المسيطر. وليس هناك شك أن مقابلة العقيدة

بالعقل.. والإيمان بالمنطق، كانت تدفع إلى نوع من ذلك التعاطف الروحي بين قوى الثورة في المجتمع وأولئك المفكرين العظام الذين شرحوا العقيدة بمرونة العقل وحيوية المنطق.

ومن هنا، فإن اختيار (العقل) في شرح العقائد كان يثير فزع (السلطان) وينزل على رأسه كالصاعقة، كذلك فإنه كان مصدر قلق للحاشية التي تمثل كل القوة الملتفة حوله، ولعل أشد ما كانت تخشاه هذه القوى من ذيوع المنطق واختيار العقل، أن يكون الوسيلة القادرة على تحريك الجماهير - (الغوغاء) أو (الرعاع)- وعلى إثارتهم وتهييجهم وتحويل طاقتهم إلى قوة ضغط وتأثير.

وبالتالي، فإنه لم يأت مصادفة قولهم المشهور: (من تمنطق تزندق)، فهو يختصر الصورة الكاملة لمخاوف (السلطان أو الخليفة أو الأمير آنذاك) من شيوع قوانين العقل، التي تقود إلى حل رأس الإنسان من لجام العقيدة والتسليم السلبي بكل شيء، ومن ثم تذكيره بأنه مصدر كل قيمة وجودية أو مأثرة اجتماعية، ولعل في هذا تحريضاً على الثورة والتمرد والخروج على وصايا أهل الحل والعقد.

باختصار، فإنه عند شيوع قوانين العقل يصبح من الضروري إيجاد نظام أساسي للحكم في المجتمع يتم بمقتضاه توزيع السلطات وإقامة توازن بينها تستقيم به الأمور وتتضح الحدود.

للإنصاف - كان المثقف في الماضي يستطيع أن يجد أمانه على رقعة أرض، في حمى عائلة أو قبيلة، أو قرية أو مدينة، أو دولة أو وطن بالمعنى القومي.

شيوخ الفكر والفقه الإسلامي كانوا في حمى أعمدة المسجد، وأعلام النهضة الأوروبية في معظم المجالات كانوا في حماية أبراج الكنيسة.

في الحاضر، وفي المستقبل أكثر، تبرز ظاهرة الوطن البيئة، الأمان في مناخ وليس على رقعة أرض بالذات.

وإذا كانت الفلسفة - باختصار - تعليل ومعرفة الأسباب.. وما الفلسفة التي هي

حب الحكمة عند أرسطو إلا معرفة المعلول بالعلة والعلة بالمعلول بالتعريف الأرسطي الشهير. فإن العلة - بمقتضى هذا المفهوم أو التعريف - وراء خلاف النصيين والعقليين تتمثل في أبرز أسبابها في وجود رجال ماكيافيليين يعتمدون تبرير الوسائل بالغايات.

وربما كانت من أسوأ مراحل هذه الماكيافيلية، أن أصحاب الإمتيازات والإنتهازيين والمستفيدين بعثروا الأفكار وسكبوا الزيت على النار بصرف النظر عن موقفهم الفكري أو الأخلاقي أو العقائدي، على أساس أن الفكر في طبيعته غائي.. وعلى هذا النحو، قامت في أيام المهدي والهادي (هيئة تفتيش) راحت تعاقب المفكرين والمجتهدين وأصحاب العقول الكبيرة بالإحراق وبمختلف أصناف التعذيب، بتهمة الزندقة، وما الزندقة من وجهة نظرهم إلا الاشتغال بالفلسفة والرياضة والمنطق.

هكذا كان الحال، أو هكذا كانت المأساة، التي تعقدت في أيام المتوكل، واستعصت المشكلة وتأزمت وبلغت أكثر ضراوة إلى الحد الذي صار اتهام الرجل بالاشتغال في الفلسفة والمنطق مدعاة ومبرراً لقتله (وقطعت في تلك الأيام رؤوس فلاسفة ومناطقة ومتكلمين، وأشعلت النيران في مكتبات وبيوت، وسالت دماء فقهاء لم يقدروا طويلاً على تقدم الصفوف الهائجة المائجة).

واضطر علماء كبار إلى الاختفاء والهروب، ولعلهم التجأوا - في بعض الأحيان - إلى التنظيمات السرية كما فعل (إخوان الصفا) في القرن الخامس الهجري، لنشر أفكارهم ومتابعة تحقيقاتهم. فقد ألفوا ما يقارب الخمسين رسالة في جميع أشكال الفلسفة عملياً وعلمياً، وأفرزوا لها فهرساً وسموها (رسائل إخوان الصفا).

وأياً كانت العلاقة بين موضوع الفلسفة، وموضوع الدين، فإنه ليس في وسع فيلسوف صادق النظر أن ينسى أن الأديان قد وجدت بين جميع البشر، وأنها - من ثم - حقيقة كونية لا يستخف بها عقل يفقه معنى ما يراه من ظواهر هذه الحياة.

إن ذلك الوضع خلق حقيقة مأساوية قائمة، لم يعد في مقدور أحد إغفالها مهما كان رأيه وحيثما كان موقفه.

وساد لبعض الوقت نوع غريب من (الوهم). كانت نزعات الوهم قادرة على تغليف معظم الحقائق، وفي بعض الأحيان يصبح (الوهم) نعمة ولو حتى كلحظة فرار من واقع مستحيل أو يبدو مستحيلاً.

وربما ساعدت بعض رواسب المواريث العربية القديمة على نزعة التبسيط المخل للصراعات، فحولت الصراع بين النصيين والعقليين إلى نزاع قبائلي مما يحدث في طلب الثأر أو خصام على مكلية بئر ماء في مراعي الصحراء.

والحقيقة أن هذه النتيجة ليست شيئاً غريباً، وإنما الغريب أن تكون هناك نتيجة أخرى، ذلك لأن الصراعات الفكرية التاريخية - شأنها شأن ظواهر الطبيعة - لها قوانين تحكم حركتها وتضبط مسارها. وليس من شك أن الإرادة الإنسانية تملك في شأن الصراعات الفكرية ما لا تملكه في شأن ظواهر الطبيعة.

إن المعارضة بأسلوب الصدام - والاتهام - التي وجهت ضد العقليين كان مؤكداً عقمها، لأن هذا الأسلوب كان كفيلاً بجعل الصدام - والاتهام - في واقع الأمر موجهاً ضد الفكر الإسلامي، وهذا خطأ وخطر، وإنما كان الأسلوب الأمثل للمعارضة هو المناقشة والحوار وقبول الآخر.

والغريب، أن الفكر الإسلامي انقسم على نفسه في مسألة عقلانية الوجود وإمكانية فهم الواقع.. فأنت ترى من يقول بهذه العقلانية، ويؤكد إمكانية معرفة الأشياء وامتلاك الموجودات في مختلف مظاهرها وكينونتها، وأنت ترى من يشكك بها، ويزعم أن هناك دائماً ما لا يمكن إدراكه أو فهمه - على أقل تقدير - ويخلق ما لا تعلمون، أي ما ليس لكم سبيل إلى إدراكه ومعرفته.

وفي الوقت الذي اكتفى فيه الفريق الأول بالعقل أسلوباً للمعرفة، فإن الفريق الثاني اعتمد الغريزة، والحدث والوحي، سبلاً وأدوات منهجية للوصول إلى ما لا يستطيع أن يصل إليه العقل.

خطر لي في لحظة من اللحظات أننا جميعاً مسؤولون عما حدث، كلنا شاركنا

فيه بنصيب، كلنا بذلنا جهداً وعرقنا على الأقل في عملية تجهيز وتحضير الأرض لمحصول العلقم الذي تكوي ألستنا الآن مرارته.

وذلك يحدث صدمة لأي مفكر، فهو لا يعقد مقارنة بين ما كان وبين ما هو كائن.

المفكر عادة يتصور طريقاً للتغيير لا يسايره الواقع بالضرورة. أظننا على نفس الرؤى نستطيع أن نقول: إن الجغرافيا والتاريخ والمواريث الحضارية لقرون ليست لعبة أهواء هنا أو هناك، ولا يمكن أن يقترن مصيرها بحادثة سياسية تقع في ساعة هي في عمر الزمان طرفة عين.

- هل يعقل أن يغيب رجل واحد من ساحة أمة فتختلف أمورها إلى هذا الحد؟.. قبله كنا في حال، وفي وجوده أصبحنا في حال، وبعده نحن أيضاً في حال!

بالطبع إن عبادة الفرد قضية تختلف عن قضية دور الفرد في التاريخ أو دور الفرد التاريخي، والحقيقة أن التعسف في أي موضوع - حتى من باب شدة الحرص عليه - هو الطريق المستقيم للوقوع في محظور التجني ضده.

إن الاعتراف لأي رجل تاريخي بدوره لا يعطي هذا الرجل، أكثر مما يستحق، ثم هو لا ينزع عنه صفته كبشر معرض للصواب والخطأ، وللنصر والهزيمة، لكن معيار الحكم على الرجل لا يكون بحساب مرات الصواب والخطأ ولا مرات النصر والهزيمة، وإنما يكون المعيار هو: إلى أي مدى استوعب الرجل حلم الأمة، وجسد إرادتها، وحرك هممها. ليس معنى ذلك أن الصواب والخطأ لا قيمة لهما وأن النصر والهزيمة لا حساب عليهما، وإنما معناه أن تقييم الدور التاريخي له معادلات تختلف.

(لقد اختار أكثر المسلمين في المدينة الإمام علي بن أبي طالب ليخلف الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان في رئاسة الدولة لإسلامية، ولكي يعالج الفوضى التي نشأت على أثر استشهاد عثمان لما يعلمون من زهده وعلمه وشجاعته وماضيه وسابقته في الإسلام وشهادة رسول الله ﷺ في حقه، إلا أن الإمام علياً امتنع - بادىء الأمر -

عن قبول الخلافة قائلاً لهم: دعوني والتمسوا غيري فأنا مستقبل أمراً له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول وأن الآفاق قد أغامت والمحن قد تنكرت، واعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب وإن تركتموني فأنا كأحدكم ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم وأنا لكم وزيراً خيراً لكم مني أميراً). إلا أنه نزولاً عند إلحاح الصحابة ورغبتهم قبل المسؤولية وتولى الخلافة، وهو مقدر لجسامتها ومتطلباتها ومتاعبها في ظروف أفرزتها فتنة قتل فيها رئيس الدولة الذي ينتمي إلى بيت من البيوت المتنفذة وهم بنو أمية. لكن قبوله المسؤولية لم يطفىء نار الفتنة، بل كانت تلك - طبقاً للتاريخ - بداية ظهور الفتنة.

وبدا بعض ما توقعه الإمام علي يقع فعلاً، بين عشية وضحاها تفتحت أبواب في العالم الإسلامي بإغراءات لم يسمع بمثلها من قبل والمشكلة أن المدى الذي يمكن أن يذهب إليه هذا النوع من الفتنة تصعب بعد ذلك السيطرة عليه.

هذا هو معاوية بن أبي سفيان يعتقد أن الإمام علياً لم يدافع عن الخليفة المقتول ولم يوفر له الحماية كما ينبغي، وبالتالي فإنه كان يساعد في عملية استشهاد عثمان، مع أن علياً (رضي الله عنه) كان قد أرسل بشهادة كل الروايات والأسانيد أبناءه الثلاثة (الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية) للدفاع عن الخليفة المحاصر في بيته من قبل (المتمردين) ولم يغادروا المكان إلا بأمر من عثمان نفسه.

ثم لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، وإنما طالب البعض الإمام علياً القصاص الفوري من قتلة الخليفة عثمان، وكان الإمام علي يرى أن الظرف غير مناسب، وأن المطلوب في هكذا ظرف تهدئة الخواطر والمشاعر المتأججة والأعصاب المتوترة، ثم بعد ذلك إعطاء كل ذي حق حقه واتخاذ اللازم الشرعي ضد المسيئين استناداً إلى الحقائق التي ستنكشف، ولكن وجهة النظر التي عرضها الإمام علي لم تنل قبولاً لدى قوم أصروا على رأيهم وأخذوا ينفخون في النار لكي يزيدوا وقودها ويستثيروا الآخرين على الحاكم الشرعي، فحملوا السلاح وعرّضُوا أمن الدولة ومصيرها إلى الخطر، وكان الروم قد بدأوا بالتحرك العسكري لتدميرها في بداية الفتنة على عثمان. فكان طبيعياً أن

يمارس الإمام علي دوره كرئيس للدولة وأن يدافع عن دولة الإسلام حتى لو استدعى هذا الدفاع الدخول في الحرب. ولقد وقعت - بالفعل - مثل هذه الحرب، فكانت المعركة المعروفة بمعركة (الجمل).. ثم كانت معركة (صفين).. وهكذا وبنفس المستوى وقعت معركة غير متكافئة الأطراف هي معركة (الطف).

كان هذا الوضع خطراً.. بالغ الخطورة، وكان المسلمون بين مصدق ومكذب مستغرب لكل هذا الذي يحدث بفعل عوامل مساعدة، والمحزن أن هذا الوضع صار أمراً واقعاً له قوة الحقيقة التاريخية من ناحية أنه يصعب تجاهل آثاره في ما بعد ذلك، حتى في ظروف تكون فيها هذه الآثار مكروهة وغير مرغوب فيها.. وفي كل الأحوال صار هذا الأمر الواقع لافتاً للنظر، ولم يكن هناك من يستطيع أن يتصور متى ينتهي؟ وكيف؟ وبأي ثمن؟.

هناك كان بعض المفكرين والفلاسفة والفقهاء والمجتهدين يبتعدون قدر ما يستطيعون عن دائرة السلطة المركزية ويعيشون في الأطراف حتى يفكروا بحرية بعيداً عن الخلفاء والقواد والولاة.. وكان المسلمون في صميم الأزمة كمن عقد لسانهم الذهول وهم يتساءلون: ما الذي جرى؟ وكيف جرى؟ ولماذا جرى؟ وهل ذلك محتمل؟، أو هل هو ممكن؟.

وهل يعقل أن تختلف الأمور على هذا النحو من الشيء إلى نقيض الشيء، ويمتد الضرر من الجزء إلى الكل؟.

إن بعضهم راح يتساءل - وهو معذور في تساؤله: هل من المعقول أن يدخل في دائرة النزاع رجال بينهم: (أصحاب بيعة الرضوان)، الذين رضي الله عنهم، فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم، وبينهم: البدريون الذين قال الله فيهم كما أخبر الرسول ﷺ «افعلوا ما شئتم فإني قد غفرت لكم»، وبينهم: بعض المبشرين بالجنة وبينهم المهاجرون: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، وبينهم الأنصار: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ

أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

هؤلاء الذين هذه هي صفاتهم بشهادة الله في قرآنه، كيف يسفك بعضهم دماء بعض؟. وفي هذا الجو المثقل والمشحون، كان بين المسلمين من التبست عليه الأمور وفقد القدرة على التمييز والتفسير من هول الصدمة لاتخاذ الموقف الشرعي حيالها، وكان رد الفعل التلقائي، أنْ ساد إحساس غريب بالرغبة في الخلاص بأي ثمن من كل هذا العناء والإحباط والشعور بالاغتراب والضياع فتعطل تفكيره كما تعطلت إرادته، فآثر الإنزواء والإنسحاب بعيداً عن الأحداث، بعد أن عجز عن فهم الحالة النفسية لما حدث، وعجز عن تحليلها، فأراد أن ينجو بنفسه مردداً قول الرسول الأكرم ﷺ في الحديث الشريف: (إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العوام وسل الله العافية). وكانت لذلك آثاره ونتائجه على الصورة العامة المشوشة والمتناقضة.

ولم يكن معنى ذلك أنه لم يكن هناك مسلمون معارضون لهم رأيهم في تقييم ما حدث، حتى مع أنهم أرغموا بالتجاهل، وأرغموا بالاضطهاد الفكري والفقهي، لكنهم كانوا حريصين على أن يفكروا بأقصى قدر من الحرية، ويعطوا نتاج فكرهم إلى الناس والمجتمع الذي هو في حاجة إليه.

وهكذا وجدت ألوف - ألوف فعلاً من صفوة المسلمين يحتلون أرفع المراكز الفقهية والفكرية ويؤثرون في بيئاتهم تأثيراً لا شك فيه. استطاعوا تمييز مسؤولياتهم الدينية والإنسانية والإجتماعية وحمل أعبائها، ويتصدون للتاريخ ليقولوا الكلمة النهائية في كل شيء.

لكي نكون منصفين أكثر، فإن أوساطاً واسعة من المسلمين رفضت تفسير ما حدث برده إلى أنه قَدَرٌ إلهي فوق قدرة الإنسان.. ولذلك يجب التسليم به ولا اعتراض عليه، وهو لا يخلو من حكمة ربانية خفية. لذلك إن مثل هذا التفسير قد جاء ليخدم الحاكم الجائر ويسقط عنه مسؤولية الفعل. يضاف إلى ذلك أن مثل هذا التفسير يتعارض مع العدالة الإلهية التي تقرر الثواب والعقاب الموجبين أن يكون للإنسان قدرة

على اختيار أفعاله لكي يثاب أو يعاقب، وبالتالي فإن ما حدث في هذه الأمة من المآسي كان من الممكن تفاديها لو أن هذه الأمة نفسها استيقظت وفتحت عيونها ووقفت موقف الرافض المستنكر للإنحراف وتحملت مسؤوليتها بالكامل.

وكان هذا بالضبط هو سوء التفاهم الكبير الذي حصل بين النصيين والعقليين.. وهكذا كانت (المقدمات والمداخل) التي أعطت للعقل دوره في التفكير الحر، وقادت إلى نشوء البحث الكلامي - العقدي - وذلك كله - بالطبع - بسبب الواقع السياسي المنحرف عن منهج الله، لتظهر الفرق الإسلامية إلى الواقع، فكان الخوارج، وكان المعتزلة، وكان المرجئة وكان أهل الجبر والاختيار، وكان الأشاعرة، وكان كل من الشيعة وأهل السنة، وبالتالي كانت المرجعيات الدينية، والدعوة بعودة الناس إلى حكم النصوص. بالطبع فإن الدين مرجعية.. ولكن هذه المرجعية لا نحتاج لها إلا عندما تأزم الأمور وتتعقد فنرجع ونقول: إننا نريد تفسيراً. إن المرجعية هنا مثل القانون لا نحتاج إلى استحضار نصوصه والاستشهاد بها حرفياً إلا إذا وقعنا في مشكلة.. مع أن القانون في كل الأحوال سائد وموجود ومستقر.

والحقيقة، فإنه ليس من السهل أن نتصور مثل هذا التبسيط فنصف عودة الناس إلى حكم (النصوص) بسبب وجود أزمة ما أو من نوع ما! فالأمر - على هذا النحو - أكبر مشكلة وأكثر تعقيداً. إذ أننا نجد أن ليس كل من هو في أزمة من نوع ما يعود إلى حكم (النصوص)، فهناك نخب وهيئات وفئات وشرائح اجتماعية معينة إنما كانت عودتها إلى (النصوص) لأسباب خاصة، سياسية أو نفسية أو اجتماعية أو اقتصادية.. أو نتيجة تأثير تحول المناخ الفكري العام الذي صنعته جملة من المتغيرات في المجتمعات الإسلامية.

والمحزن، أن أوروبا الغربية استطاعت مبكراً أن تحل قضايا وحدتها الدينية والطائفية، وتحقق توازنها الطبقي بكل الوسائل، وتحصل على التراكم الرأسمالي الذي مكنها من الثورة الصناعية التي فتحت الطريق لتوازن اجتماعي يمكن على أساسه أن تقوم مؤسسات الحوار الديمقراطي. في حين أن المسلمين ما زالوا يعانون من مشاكل

الأقليات الدينية والطائفية وكأنها ألغام موقوتة على درجة من الانفجار.

وأريد أن أسأل هذا السؤال:

هل يعقل أننا لا نملك أن نجتهد في قضايا زماننا ولا نملك غير استقراء الطبائع والتجارب، ثم الاستنتاج على هدى قرائن وعلامات تظهر من بعيد، وهي تنقل رسائلها بالرموز والإيماءات، ثم تختفي بنفس السرعة التي ظهرت بها؟.

أليست غريبة - على سبيل المثال - بعض المناقشات التي ما زالت تدور في بعض الزوايا المظلمة حتى الآن:

من هو أحق بالخلافة من الخلفاء الراشدين؟.

ثم لماذا انقلب كل شيء رأساً على عقب؟

والأقدار لا تتعلق بكلمات..

والمستقبل لا يرتهن بنوايا..

والمصائر لا يضمنها مزاج لحظة بعينها!.

لقد أطلقت هواء ساخناً كان محبوساً في صدري بعد جولة في الأفق كله، والحقيقة - أعترف بها حزيناً - أنني عاجز عن فهم ما جرى، عاجز عن فهم ما يجري، أقلب الحال على كل حال فلا أجد فيه ما يقنع، وأسلط الضوء نحوه من كل جانب فلا أجد هناك ما يطمئن له قلبي. لأن هذا كله أجد الحديث فيه عقيماً.

ولست أعرف كيف يمكن أن يكون ذلك مقبولاً؟

وكان الله في عوننا إلا إذا حدثت معجزة.

لكني على الرغم من ذلك كله متفائل.

أليس صحيحاً أن هناك فجراً بعد كل ليل مهما طال؟.

(٨)

أريد أن أقول ومن السطر الأول أن الدعوة إلى التجديد ليست ترفاً أو شكلاً من الأشكال لا ضرورة له، بل نحن نقطع وباليقين أن إعادة قراءة النص ضرورة تقتضيها متغيرات الواقع وشروطه، ونجزم أن من عاش في القرون الأولى لبعثة المصطفى ﷺ قد قرأ النص بهذا الفهم، وليس بفهم آخر، ونحن موقنون أن النص القرآني قد أمرنا بضرورة مراعاة المتغيرات والمستجدات كافة حيث قرر وفق قانونه الاجتماعي الذي نصطلح على تسميته (بجهاز التغير التقدمي) أنه حيث وجد حراك مجتمعي صاعد إلى أعلى فمعناه وجود متغيرات تقتضي الاستجابة له كقوله تعالى ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٦-١٩].

ومن هذا النص نفهم أن الإنسان محكوم وبفعل الحراك المجتمعي بالانتقال من طور وجودي إلى طور وجودي أقوى منه أي من كينونة إلى صيرورة كينونة أرقى منها، وهذا الفهم على هذا المستوى هو الذي يجعل الحقيقة الدينية فاعلة ومؤثرة، لأنها تعيش عصرها وتتفاعل مع واقعها وهو واحد من شروط النهضة إذا أردنا أن نصوغ مشروعاً للنهضة، وبعكسه فإن المسلم أو البناء التكويني للمجتمع المسلم سيصبح كالمشلول الذي يتوكأ على عكازات لا ينتجها ولا يفيدنا في شيء أن ننتج العكازات فضلاً عن أن نستوردها وهذا يؤشر حقيقة على غاية كبيرة من الأهمية: والمؤسف له أننا لا نبدع بل نتبع، ولا نشارك في قرارات العالم ومصيره بل إننا مأخوذون بسذاجة الدهشة، ومن هنا تحولنا إلى أمة أجيرة وليست شريكة في صناعة التاريخ أو في تغييره وحاجتنا للنهضة ليست لخدمة ذاتنا فقط بل لخدمة الإنسانية، لأننا نعتقد أن العالم يسير إلى الهاوية حيث عجزت كل الفلسفات عن معالجة نقائصها وبالتالي يأتي دور أمتنا في تصحيح وضعية الإنسان على أسس أداء أمانة الاستخلاف بلا علو في الأرض ولا فساد، وهكذا تصبح قراءة النص أو بتعبير أكثر دقة إعادة قراءة النص دون استدعاء أو

استنساخ فقه القرون الأولى مهمة وضرورية حتى نستجيب لفقه الأولويات وفقه المصالح وفقه المستجدات والمستحدثات، وحتى نشارك في ثورات الانتقال والاتصال والطاقة والمعلومات وتصبح الحقيقة الدينية جزءاً فاعلاً ومؤثراً في المجتمع وليس جزءاً مشلولاً فيه أو معوقاً يجر المجتمع من أذياله إلى الخلف.

وفي حياة الأمم تتداخل الأفكار، وتبدو الأمور أكثر تعقيداً لا سيما أن الحياة الحضارية ليست مجرد مفاهيم ثابتة لا تقبل تغييراً، بل الحال أن رؤى الأمم يتجاذبها في جميع مراحلها التاريخية تياران على طرفي نقيض، لا بد منهما لاستمرار الحياة الفكرية القائمة على أساس البرهنة والاستنتاج، تيار يدعو إلى الحفاظ على موروث الأمة كما هو ويعده الفيصلَ في تحديد هويتها، وتيار يدعو إلى فهم موروثه فهماً جيداً، وتوظيفه لملائمة الحياة العصرية من خلال تجديد المفاهيم في ظل المنطلقات الأصيلة له، ويمكن أن تدعو التيار الأول: بـ (المحافظين)، والثاني: بـ (المجددين).

ومهما يكن من أمر، فإن الثقافة الإسلامية ليست خارجة عن هذه النواميس، فلقد عرفت الحياة الفكرية للمسلمين هذين الاتجاهين في التعامل مع القضايا الوجودية الكبرى التي تتصل بالفرد والمجتمع، والخالق والعقل، رغم ما تعرضت له حياة الفكر الإسلامي من نشاط وخمول شأنها شأن غيرها من الثقافات. ومما يجعلنا أمام صورة أكثر وضوحاً: أن نحدد معالم كل من المنهجين، ويمكن أن نجملها في هذه النقاط:

١. الوقوف عند حرفية النص وظاهره، من دون التنقيب عن مقصد الشارع وعلة التكليف ومراعاة الحاجات الآنية والدينية للفرد والمجتمع والبت بعدم إمكان تغيير أولويات التشريع بتغير الزمان والحال والمكان. واعتبار ذلك من جملة الاتباع الذي أمرت به الأمة.

٢. إعلان الحرب على كل من يدعو إلى إعمال العقل في الاستنباطات الفقهية، وعد ذلك التحويل جرأة على مراد الشارع، وباباً يلج منه كل داع إلى الحكام بالهوى المجرد ومخالفة صارخة لمفهوم النص في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

٣. الإسراف في جعل قدسية أكثر لعلماء القرون الأولى لا سيما الثلاثة، واستنادهم في ذلك إلي قول رسول الله ﷺ (خيرالقرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم).

وهذا أمر لا يتوافر في من بعدهم، خاصة المحدثين الذين هم عرضة (للفتنة) في مظاهر الحضارات الأخرى، والاستعداد العقلي والنفسي لقبول تلك الأفكار الوافدة ولا يخفى ما في هذا من إمعان في إذابة خصائص الإسلام وثوابته في تلك التيارات ووجوب الانزواء والتقوقع في تاريخ وجغرافية الإسلام والذي نراه أنه لا بد للمسلمين من الإقدام على معاودة النظر في هذه العقبات التي تقف في وجه التجديد وترمي إلى عزل الأمة في ميدان التقليد في كل مجالات الحياة وفي ما يأتي مجمل هذه الاعتراضات:

١. إن المسلمين عامة وخاصة لا يقللون من القدسية التي تتمتع بها نصوص التشريع قرآنية كانت أم سنة نبوية لا سيما أن النصوص أمرت بشكل قطعي ثبوت ودلالته) على وجوب الامتثال لما تحويه من أمر ونهي من ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١]. لكن الأمر الذي جعل من تلك النصوص وحدة متكاملة في المضامين والتشريع هو التفسير الذي كانت له أصول ومناهج أدت إلى تكوين مدارس قد تختلف في أسسها ونتائجها لكن السواد الأعظم منها يتفق على أن النصوص تحمل في طياتها مقاصد عامة كلية، لا يمكن إهمالها والصفح عنها وإلا تسببنا بالمشقة والحرج للمكلفين. ثم إن ما أمرنا به من الاتباع إنما هو الذي يتضمنه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ﴾ [فصلت: ٥٣] ونحن نسلم أن المشرع نهانا عن الابتداع وهو ليس الابتداع المقصود للشارع ما فسروه به بل هو إدخال ما ليس من الدين فيه، وقد نخلص إلى أبعد من ذلك فنقول إن هناك ابتداعاً محموداً هو نتيجة البحث عن الحكم الشرعي من دليل جزئي في ضوء ما تحدده النصوص بمجموعها مع مراعاة المقاصد والمصالح الكلية التي اعتبرها الشارع لا التي ألغاها.

٢. ضرورة تيقظ العقل المسلم في استنباطاته إلى أصل قرره الشرع وهو الاستصحاب،

أو براءة الذمة، وأن الأصل في الأشياء والتصرفات - عدا الأبعاض والعبادات - الإباحة حتى يأتي النص بخلافه، والعمل بخلاف هذا الأصل مؤد إلى وقوع الناس في الضيق والحرج، اللذين ليسا هما مقصودين للشارع.

٣. العمل على تخليص الحياة الفكرية الإسلامية من التناحر الذي يتصوره بعضهم بين العقل والنقل، فكل يؤيد منهجاً كما لو كانا على طرفي نقيض وإن أحدهما من جهة الشرع والآخر من عند غيره، وهذا التقابل نرفضه رفضاً باتاًلا عودة فيه، لا سيما أن العقل عمدة ومناط التكليف: هو الذي جعله الله سبباً للخطاب قرآناً أو سنة، وهذا يجعلنا أمام ربط واضح بين العقل والوحي، وأن بينهما نقاط لقاء أو اشتراك عديدة.

٤. إن جميع المسلمين يعرفون فضل العلماء المتقدمين بدءاً من صحابة رسول الله ﷺ وأهل بيته، ثم التابعين فمن جاء بعدهم من علماء الأمة على اختلاف تخصصاتهم وميادين العلم التي أبدعوا فيها تفسيراً أو فقهاً أو أصولاً أو كلاماً، وليس هناك من ينكر فضلهم وما أصّلوه من أصول وقَعّدوه من قواعد، لاغنى لنا عن مراجعتها وأخذها بنظر الاعتبار، لكن الذي ينبغي أن يظل ماثلاً أمام أعيننا، أن ذلك ليس غاية المقدور ونهاية الميسور، وذلك أن اجتهاداتهم كانت تحملها عناصر ومتغيرات لم يعد لها وجود بيننا، وأن ما وصلوا إليه من جهد علمي إنما هو ثمرة ذلك الواقع، فإذا تغير الواقع لزم تغير ثمرته.

٥. إن امتنا أمة واثقة معتدة بنفسها لها خصائصها ومميزاتها التي تجعل منها أمة فريدة في التكوين وفي النتاج، وأن منع الأمة من أي فكر وافد أو تبادل ثقافي، يجعلنا في وضع لا نحسد عليه من الانكماش والانطواء، وعدم مواكبة ركب الحضارة العالمية التي تتسلق سلم الأمجاد وتجعل غيرنا يشكك في قدرات الأمة في المحافظة علي هويتها، ولسنا نريد أن نقرر قبول الأفكار الوافدة على علاتها، بل نقبل منها ما نؤمن به من ثوابت عقائدية أو شرعية أو مصلحية لأبناء أمتنا.

ومن المهم أن نلفت نظر القائلين بالاتجاه الأول إلى أن الإسلام ليس مبناه المخالفة المطلقة في كل جانب لما سواه، بل هناك أمور قررها الشرع كما هي، مراعاة

لما فيها من مصالح وحكم، بل إن الشارع أقر أموراً من الجاهلية، نعم . . . الجاهلية، منها أن رسول الله ﷺ لما شَهِدَ حلفَ الفضول في الجاهلية، قال فيه: لقد شهدتُ في دار ابن جدعان حلفاً ما أُحبّ أن لي به حمر النعم، ولو دعيتُ به في الإسلام لأجبت.

والأمر الآخر يبرز في أن قيمة الاختلاط ونبذ العزلة ومقارعتها يظهر في سيرة النبي ﷺ وكيف كان وهو النبي المبلّغ يتّسعُ صدره للآراء المخالفة، بل كان يحرض أصحابه على أن تكون مواقفهم واجتهاداتهم متفاعلة مع دقائق الحياة وتشعباتها، فكوّنُوا أروع حضارة وأنبل قيم أفاءت على الإنسانية خيراً كثيراً، وعلماً نافعاً، وقيماً صالحة.

ومما يجدر التنبيه إليه أن الحضارة المعاصرة التي نحياها اليوم والتي تفرض نفسها علينا وعلى غيرنا، بالفكر والتقنية والسلع والسلاح، شيء جديد تماماً، ينافس ويهدد ويقتحم عقر الدار. فلا بد أن نقتنع بأننا لم نعد وحدنا ومن المؤكد أننا لن نكون وحدنا في المستقبل، على الأقل في الزمن القريب.

ومن هنا فإن النموذج الذي يجب استلهامه في بناء الذات وتحصينها مراجعة النفس في الخوف من أشباح الغزاة وخطر الفكر المستورد فلا بد من التسلح بعقل متقد وذهن ناضج ومعيار متوازن يسمح في الأخذ عن الغير وبالعكس. أما من ينصب نفسه وصياً على الإسلام وثقافته فيرفض نيابة عنه كل تجربة نشأت أو تمت خارج نطاق الإسلام رفضاً أعمى وبدون معايير، فنذكّره بأن الدين في رعاية الله وأنه ليس في حاجة إلى وصاية أحد، وأن التجديد في الفكر الإسلامي هو تطوير له لا خروج على شيء من الثوابت الإسلامية ولا انفلات من المبادىء والقيم، فإن التجديد ومسايرة ركب الأمم والشعوب أول الطريق في تطوير خطاباتنا الدينية مع المقابل، إعداد لطفرة نتجاوز بها الوضعية الراهنة ومكوناتها. وحتى نبتعد عن العقدة النفسية الخطيرة، عقدة الشعور بالنقص الذاتي.

والحق فإن العقل يبدأ بالانفتاح على الحياة، على المعطيات الجديدة التي تحملها معها والقوانين التي تحكم تطورها.

وبقدر ما يكون الوعي بنوعية التطور الحاصل عميقاً بقدر ما تتسع الإمكانات أمام

الذات للحفاظ على استقلالها وأمانتها ولضمان الاستمرار لأصولها ومراجعها خلال عملية الملائمة المطلوبة التي تكتسب حينئذ، أبعاداً عميقة، فتجمع بين إعادة بناء الواقع وإعادة تأصيل الأصول.

نقول هذا ونحن نفكر، أنه بالإمكان التغلب على كثير من المشاكل، التي تطرحها علينا الحياة المعاصرة بتحقيق نوع من التوافق والتكامل بين ما يفرضه العصر من تجديد وما يقدمه تراثنا من قيم وتشريعات.

ثوابت التجديد ومداخله:

أولاً: إن كل مَنْ بَلَغته الدعوةُ الإسلامية مطالب بتبليغها بلا إكراه أو وصاية، فالمصلحون العظماء هم الذين يفيضون من أناتهم على ذوي النزق حتى يلجئوهم إلى الخير إلجاء ويطلقوا ألسنتهم تلهج بالثناء. فالإكراه مرفوض ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ و﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ فهذا المبدأ قاعدة كبرى من قواعد الإسلام وركن عظيم من أركان سماحته فهو لا يجيز إكراه أحد على الدخول فيه ولا يسمح لأحد أن يكره أهله على الخروج منه من أجل ضمان عدم الإكراه أوجب الإسلام على المسلمين التمكن من القوة للقيام في وجه من يحاول فتنتهم عن دينهم وأمر المسلمين أن يعتمدوا في دعوة خصومهم أسلوبَ الحكمة والموعظة الحسنة لتبيين الرشد من الغي، فإن الله تعالى ما بنى أمرَ الإيمان على الإجبار والقسر، وإنما بناه على التمكن والاختيار.

ثانياً: إن الاجتهاد في الإسلام لا ينطلق من فراغ، من لا شيء، فليس ثمة شيء يبنى على لا شيء، بل الاجتهاد في الإسلام إما أن يكون في المسائل التي يمكن أن تدرج تحت حكم شرعي، وإما أن يكون في مسائل لا نصّ فيها. وفي هذه الحالة تكون المصلحة العامة التي تقتضيها ظروف العصر هي المرجع، والخلقية الإسلامية هي الموجه، والتجربة التاريخية للأمة هي موطن العبرة والاعتبار فلماذا نُضَيّق على أنفسنا، ونسجن اجتهادنا في قواعد كانت تفي بالمصلحة والمقاصد، قليلاً أو كثيراً، في زمان، إذا لم تعد تفي بنفس الغرض اليوم على أكمل وجه، والحال أنها قواعد مبنية على ظن

المجتهد وليس فيها شيء من القطع واليقين باعتراف أصحابها أنفسهم؟ فالحاجة ماسة إذن إلى الاجتهاد المواكب، مواكبة الحياة المعاصرة هي أولاً وقبل كل شيء مسألة منهج.

ثالثاً: الاجتهاد أصل من أصول التشريع وهو عبارة عن بذل الجهد الفكري في طلب العلم بأحكام الشريعة، وهذا حق لكل مسلم توافرت فيه الشروط المعرفية التي تمكنه من ذلك. والمجتهد المفسر لآيات القرآن الكريم ينبغي أن يخط منهجية جديدة في التعامل مع الآيات الكريمة فلا يقتصر على مراجعة أقوال الأقدمين من المفسرين إذ في الثقافات القانونية والتشريعية المعاصرة زاد نافع ومفيد، لا بد أن يستأنس بها إضافة إلى ما توصلت إليه العلوم المختلفة من نتائج مستقرة في فهم بعض آيات القرآن الكريم أو الاستدلال بها على إعجازه.

رابعاً: التوقف عند نصوص السنة النبوية وتجلية قواعدها ومصطلحاتها وتمحيص مروياتها على محورين - محور السند ومحور المتن - وتحديد ما يعد شرعاً منها وما لا يعد شرعاً لأن النبي ﷺ ظلت بشريتهُ حاضرةً في حياته حضور نبوته، وأن كثيراً من أقواله وأفعاله صدرت عنه بحكم تلك البشرية، مع توجيه العناية في البحث بالملابسات والوقائع التي أحاطت بالحديث وتفسيرها تفسيراً يطابق المقصود من ورائه، ويحقق الغاية منه.

خامساً: إن تطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وطنياً ودولياً، لن يستوعبه إلا فكر يرتفع بالاجتهاد والتجديد إلى مستوى هذا التطور ذاته. وإذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد عمل باجتهاده واجتهاد الصحابة الذين استشارهم، في مسألة فيها نص، فوضع الخراج على الأراضي المفتوحة عنوة بدل تقسيمها بين المقاتلين، مراعياً في ذلك المصلحة، مصلحة الحاضر والمستقبل، وإذا كان قد عدل عن قسمة الغنائم بالسوية، كما كان يفعل النبي ﷺ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، وارتأى أن العدل يقتضي قسمتها على أساس السبق في الإسلام والقرابة من الرسول ﷺ. إذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد اعتبر المصلحة ومقاصد الشرع فوضعهما فوق كل اعتبار فلماذا لا يقتدي المجتهدون والمجددون اليوم بهذا النوع من

الاجتهاد والتفكير، فالمصلحة تتلون بلون الظروف والمعطيات الحضارية والتطورات التاريخية، وبالتالي فإن الاجتهاد الذي يعتمدها وينطلق منها سيفقد معناه وجدواه إذا لم يكن اجتهادا متحركاً متجدداً، وإذا لم يكن صادراً عن عقل متحرك متجدد مختلفٍ اختلافاً نوعياً عن ذلك الجهد الذي كان مطلوباً في مجتهدي الأمس.

سادساً: ضرورة تأسيس مؤسسات بحثية تدرس فيها العلوم الإسلامية تستطيع أن تطبق الاجتهاد الجماعي من خلال معرفة مقاصد الشريعة بدل الاقتصار على تفهم معنى ألفاظ النصوص واستنباط الأحكام منها، مع معايشة أحوال الناس بالمشاهدة والتجربة والمتابعة على ما يطرأ على تلك الأحوال من تغيرلا بد أن تستجيب له الفتوى، ولديمومة هذه المجامع لا بد من تقويم لأدائها ونظام عملها مع تشكيل لجنة للتنسيق بين هذه المجامع من أجل تحقيق تبادل المعلومات والأبحاث عملاً في توحد الرؤية وتوحيد الأولويات.

هذه لمحات تعبر عن إيماني الكبير بالحاجة لتجديد الفكر ذلك أن التغير الهائل الذي حصل على المستويات كافة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.. يجعل الانفتاح على هذه العلوم، وبكيفية خاصة على أسسها المعرفية ونتائجها على المستوى الإنساني، ضرورة من ضرورات الحصول على الكفاءة التي تمكن من الاجتهاد لأنه بهذا الانفتاح على فكر العصر يكون الاجتهاد مواكباً للحياة وتطورها.

أما الذي آثر الانكماش ولم يواكب المرحلة فهو لا ينفع الحاضر، والماضي في غِنى عنه وهؤلاء قد آثروا أن يفروا إلى ماض لا فضلَ لهم فيه، إشفاقاً من مستقبلٍ لا أملَ لهم فيه. لقد التوت أعناق أجيال متعاقبة من المسلمين وهم مشدودون إلى الوراء، مقيدون بقيود الماضي، مشفقون في إساءة الظن بكل دعوة ينادي أصحابها بالتجديد، سواء كان هذا التجديد في الفقه أم في الفكر، أم على مستوى العمل الفردي والجماعي، فدار دولاب العالمين وتحرك في حين أننا توقفنا، وانطلق الآخرون وعاشوا في المعمور من دنيا الناس، في حين تجمدت أوصال امتنا فعشنا في الركن البائس الخرب من هذه الدنيا.

(٩)

يجب علينا أن نضع تحفظاً مهماً حتى لا نقع ضحية الاختلاف على المفهوم، فنقول بأننا نقصد بـ (الروائي) و(الرواية) هي تلك الرواية غير المنسوبة إلى النبي ﷺ، بل نقصد بها الرواية التي هي من اجتهاد أشخاص في عصر ما بعد عصر النبي ﷺ.

من الصعب أن تكون المعالجات الفكرية وليدة المترادفات اللفظية إلا أن إثارتنا الفكرية وليدة التطبيقات المعاصرة للقرآن الكريم، فهو كتاب الله الذي بدأ المسلمون يتزاحمون في ساحته القدسية المجردة من التطبيق العلمي والعملي.. الحقائق العلمية المعاصرة أجبرت المسلمين على فرض طوق قدسي على المتن الشريف لكي لا تنال الحقائق العلمية من هيبة القرآن الكريم، أو تسبب مصدراً لتشويه مصداقية الكتاب الحكيم، ولعل إثارتنا الفكرية تتضح لو أخذنا مثلاً من الآية ٨٦ من سورة الكهف ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ﴾، ولو قلبنا آراء المفسرين السابقين والمعاصرين، فإن اضطراباً فكرياً كبيراً يحل في ساحة الباحث عن الحقيقة القرآنية، لا بسبب اختلاف المذاهب، بل في المعالجة العلمية والتي تجبر الباحث أن يدفع القرآن إلى ركن قدسي. لأن الحقيقة العلمية والمعاصرة أثبتت بما لا يقبل الشك أن الشمس لا تغرب بل نحن نغرب عنها وهي حقيقة في ألف باء علوم العصر.. كيف وجد ذو القرنين أن الشمس تغرب في العين الحمئة...!!!.. عندما يتهرب (العقائدي) من معالجة الفكر المضطرب لا يجد وسيلة غير السمو بقدس القرآن وتصديقه وإن ما أوتينا من العلم إلا قليله وتلك هي نقطة البداية في التفريق بين الفهم والتفسير.

عندما نكون مع الآية ٢٦٠ من سورة البقرة فإننا نثير إثارة مفتعلة في عقولنا بعيداً عن العلوم المعاصرة ﴿.. قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ..﴾، فإن تفسير الآية لا يجهد الباحث المفسر للقرآن لأن النص واضح وضوحاً مطلقاً في الطلب الإلهي من

إبراهيم عليه السلام في إجراء تجربته على أربعة طيور، ولكن الباحث الساعي لفهم القرآن لا يكتفي بتفسيره فقط لأن تساؤلاً كبيراً يثورفي عقله عن مدى حاجة التجربة لأربعة طيور لأن العلم بكيفية إحياء الموتى يتحصل بالتجربة على طير واحد فلماذا أربعة طيور..!! وإذا كانت الطيور الأربعة تمثل كماً تجريبياً لا بد منه فلماذا أربعة طيور حصرا.؟!..

عندما نثير في عقولنا مثل تلك التساؤلات الفكرية فإن حاجاتنا العقلية المعاصرة تستطيع أن تفرق بين (الفهم) و(التفسير)، لأن منهجية التفسير التي ترسخت لدى أجيال العقيدة جعلت من الرواية مصدر تفسير متقدم على المعالجة العربية للنص الشريف وحتى المعالجة العربية للنص تحولت إلى المسلكية الروائية بسبب اختفاء الكثير من المفردات العربية من الاستخدام الجماهيري وفقدت الحراك المتفاعل على لسان الأجيال اللاحقة، فأصبحت العربية بذاتها مؤرخة وتحول الفقهاء إلى الجانب الروائي في مهمتهم التفسيرية وبدأت عقول المفسرين في ما يلي عصر النهضة الفقهية مع الربع الأول من الحكم العباسي تتحول إلى اجترار كلام السابقين مع ازدياد مطرد في مواطن الاختلاف.

ولو عدنا إلى مثل مغرب الشمس في حكاية (ذي القرنين) القرآنية لوجدنا أن المهمة التفسيرية اعتمدت الرواية بشكل مطلق، وبرغم أن الروايات ضبابية ولا تغني عقل الباحث عن الحقيقة، إلا أن مسألة قبول غياب الشمس في عين حمئة لم تكن تتعارض مع النظريات السائدة في زمن التفسير الأول للقرآن حيث كان الاعتقاد أن الأرض مركز الكون، وأن كروية الأرض لم تكن تشكل لهم حقيقة علمية معروفة.. الاعتقاد بأن الشمس تتحرك والأرض ثابتة لا يمنع من قبول فكرة غياب الشمس في عين حمئة، ولكن علوم اليوم بعد أن ترسخت وبشكل يقيني أصبحت أقوال بعض المفسرين تقترب من الكلام غير المقنع، مما دفع أهل العقيدة للحفاظ على قدس القرآن في انتظار انفراج فكري حتى أن الكثير من المفكرين يتوقعون أن التقدم العلمي المعاصر سيصل إلى القمة العلمية حيث سيكون القرآن قد وصف القمم العلمية دون التفاصيل..

إن إرجاء رفع الاضطراب الفكري إلى العلم المعاصر نفسه يتعارض مع نصوص

كثيرة في الذكر المبارك وذلك من سورة القيامة الآية ١٧ وما بعدها ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ . . ﴾ وفي ذلك وضوح بالغ وبلا ريب أن بيان القرآن مكفول من الله سبحانه وتعالى وليس بعلوم الإنسان وبذلك، فإن جهود العقائديين الذين يجمعون بين علوم العقيدة وعلوم المادة لن تكون سبباً في بيان القرآن لأن العلوم المادية علوم عقيمة لتعلقها بالمادة، في حين يجد الباحث وبشكل واضح أن علوم القرآن تستكمل العلوم المادية وعلوم العقل. . العلوم المعاصرة لا تعرف عن العقل شيئاً يرقى إلى التسمية العلمية أن الأنشطة الفكرية للإنسان بقديمه وحديثه تتعامل مع العقل تعاملاً سلبيا من حيث النتيجة ولا تمتلك الساحات العلمية أية مسالك إيجابية في علوم العقل حتى أن بعض الأكاديميات المعاصرة رفعت شعاراً يقول (العقل بلا جواب) ولكن الذكر الحكيم في الآية ٨٩ من سورة النحل يسقط ذلك الشعار المرفوع ﴿ . . وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ . . ﴾، والآية ٣٨ من سورة الأنعام تزيد مسربنا الفكري رسوخاً ﴿ . . مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ . . ﴾ ولكن الفيض الفقهي المتوارث من السلف الصالح كان ولا يزال يمثل سوراً حول العلوم العقائدية وأصبح من مستلزمات فاعلية ذلك السور أن يردد الأبناء منهجية الآباء والأجداد على وفق ما تتطلبه المنهجية الروائية في التفسير. .

المنهج الروائي في تفسير القرآن حال دون فهمه في وجهه العلمي وأصبح اعتماد المنهج الروائي يصلح في استنباط الأحكام الشرعية لثباتها ورسوخها واتصال ذلك بسنة المصطفى ﷺ والتي لا يمكن حيازتها إلا عن طريق الرواية وهنا تقف عقولنا على مفترق عدة طرق فكرية بسبب الفارق الزمني الكبير بين زمن نزول القرآن وتطبيقات سنة المصطفى ﷺ وزماننا وأن حيازة الشريعة بالكامل لا يمكن أن تكون إلا عبر النهج الروائي حتى لو انفردنا بعقولنا مع القرآن الكريم من دون المرور بالسلف الصالح فإن الرواية تفرض علينا حضورها الإجباري عبر القراءات السبع للقرآن الكريم، والتي تمر في قنوات روائية لا بد منها. لأن القرآن الكريم نزل في جيل يفصلنا عنه ما يزيد على أربعة عشر قرناً من الزمن فيصبح العالم العقائدي مقيداً بالنهج الروائي ليمتلك الحيازة

الفكرية العقائدية، وإلا فإن عملية إلغاء النهج الروائي يفقد العالم العقائدي صفته العلمية..

نحن في مفترق طرق فكرية مفتعلة نستخدم إثارتها في مناورة كلامية لنصل إلى نقطة بداية تطالب بالتجديد في الاجتهاد تحت ضوابط صارمة نحتلبها من الفكر العقائدي نفسه ولن تكون بنات أفكار مفكر يدعي ولادتها في فكر منفرد.. بيان القرآن تكفّلَ به الله سبحانه وتعالى كما جاء في سورة القيامة ولكن الإثارة الفكرية التي تحاول الابتعاد عن النهج الروائي لا تلغي الرواية بل تؤكد ضرورتها ولكن تقلّبَ الرواية عبر الأجيال العديدة حتى وصولها إلينا جعل من الرواية تحتمل الريب والقرآن بلا ريب فتكون عقولنا أكثر يقيناً مع القرآن الكريم وأقل يقيناً مع الرواية حتى نجتهد في إثباتها بوسيلة علمية لا بوسيلة روائية..إن آية الفجر في القرآن الكريم ثابتة ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ ولكن الرواية في تفسيرها زادت على ٣٥ قولاً.. في ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ من سورة الأعراف أكثر من ١٨ قولاً فعندما يكون الباحث عن الحقيقة القرآنية بين ثابت (قرآن) ومتغير (رواية) فإن رصانة العقل تدفع الباحث للتمسك بالثابت وترك المتغير ليصل بالفهم إلى الحقيقة التي يشير لها القرآن بوسيلة غير روائية.. هذه المحاولة ستعيد الباحث إلى الرواية بعد الحسم الفكري بوسيلته المعاصرة وعندها سيسمو بالرواية التي تطابقت مع الحقيقة القرآنية وتنهار الرواية التي خالفت الثوابت القرآنية حيث يستكمل الباحث بحثه مع الرواية الصادقة والتي اتصفت بصفة غالبة في كونها (بلا ريب)..

التراث الفكري العقائدي الكبير الذي ورثناه من السلف الصالح يفرض علينا سطوته الفكرية في عملية المناقلة الأمينة للفيض العقائدي، لأن الشريعة بكاملها نقلت عبر أجيال حملتها وبرغم أن تدوين القرآن قد حصل في حقبة زمنية مبكرة من عهد الرسالة الشريفة، إلا أن التدوين الكامل للفيض الشريف بدأ مع بداية النهضة الفكرية العقائدية في العهد العباسي الأول وبفارق زمني طويل نسبياً، وقد اتصف بصفة مركزية أثقلت أجيالنا وهي صفة الاختلاف المذهبي.. الاختلاف المذهبي لم يكن اختلافاً متمركزاً في الفهم الأوحد للشريعة السمحة بل في اختلاف الرواية..

الاختلاف الروائي كان السبب المباشر في الاختلاف المذهبي الأول ولكن مغذيات ذلك الاختلاف تنوعت وتعاظمت عبر الحقب الزمنية المختلفة كما أن القرآن الكريم اتصف بصفة الثبات بمتنه القدسي، لأن جمعه وتدوينه كان الأقرب لعصر نزوله، إضافة للوعد الإلهي في حفظه، حيث يجد الباحث أن الهمة العالية في تدوينه وتوحيده كان بهداية إلهية واضحة قبل أن يدرك الموت حفّاظ المتن المبارك من الرعيل الصالح الذي نزل فيه القرآن فأصبح بالنسبة لأجيالنا بلا ريب.

إن قيام القرآن بيننا قياماً قدسياً مجرداً من التطبيق يضع الفكر الإسلامي في غاية الحرج الفكري ويمنح أعداء الإسلام الفرصة في هيكلة القرآن في ركنه القدسي وإخراجه من ساحة التطبيق في حياتنا المعاصرة التي تتصف بالزحمة العلمية المتألقة.. في سورة يس ﴿.. لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ..﴾ حقيقة قرآنية لا تسجل أي تطبيق فكري أو علمي ولا تقيم حكماً أو تلغي فعلا مباحاً أو تشير إلى استحباب أو كراهة أو تنظم علاقة في أي نشاط إنساني، وليس لهذه الآية صفة كحقيقة قرآنية سوى حالة القدسية التي تعيش في صدور حملة العقيدة في قدسية الآية الكريمة وحتى عندما نصفها بآية كريمة تخفى علينا أسرار كرمها وكيف يكون ذلك الكرم..! إنها مثل قرآني لبؤرة فكرية يدور حولها طرحنا في دعوته للتجديد المنضبط في الفكر العقائدي.. الشمس لا ينبغي لها أن تدرك القمر.. فهل نستطيع أن نمسك بالقصد القرآني الشريف في معرفة كينونة إدراك الشمس للقمر..؟ الفكر العلمي المعاصر سيأخذ حيزاً مهماً من عقولنا عندما نعالج النص الشريف فكرياً حيث العلم الحديث أكد تابعية القمر للأرض وأن التبعية تبعية جاذبية فقوة جذب الأرض تدرك القمر فهو تابع ارضي والشمس لا تدرك القمر لأنه في حيازة جذب الأرض، وفي الوقت نفسه فإن أشعة الشمس تدرك القمر، وعندما يكون الوجه المشرق من القمر أمامنا فإن أشعة الشمس الساقطة عليه تمنحنا فرصة رؤيته في منازله. عندما عرفنا أن القصد الشريف في جاذبية الشمس وليس في أشعتها من الحقيقة القرآنية في سورة يس فإن القصد الشريف في سورة الكهف حول غياب الشمس في العين الحمئة ينحو نفس المنحى فيكون القصد الإلهي في غياب

الشمس جاذبيتها وليس أشعتها وذلك هو الوصف الأولي للنهج القرآني الصارم في عملية الفهم (بيان القرآن)..

الإيمان بدستورية علوم القرآن ستضع بين أيدينا مكتشفاً علمياً من القرآن نفسه يسمو فوق العلوم المعاصرة.. تلك الحقيقة العلمية التي أشارت لها الآية ٨٦ من سورة الكهف أن جاذبية الشمس تكون صفراً في موقع من مواقع الأرض.. تلك المعلومة العلمية مستحلبة من المتن الشريف وعلى ممارسي علوم العصر المادية متابعة هذه الضابطة العلمية..

لا يستطيع العالم المادي المجرد من الإيمان بالقرآن أن يعتمد هذه الضابطة كحقيقة علمية يحاول الإمساك بها بوسيلة علمية معاصرة ولكن العالم العقائدي المجاهد في التجديد المنضبط يسعى لترسيخ النهج القرآني في عقول الباحثين عن الحقيقة..

لا يستطيع العالم العقائدي المتمسك بالرواية المخضة أن يتعامل مع هذه الحقيقة القرآنية لأن منهجه الاستقرائي للقرآن منهج روائي وأنه يمتلك من الروايات ما يغنيه ويشبع طموحه العقائدي وإذا ما سأله سائل عن الاضطراب الفكري في التناقض بين الحقيقة القرآنية والحقيقة العلمية فإن زاوية قدس القرآن هي المخرج الوحيد فإذا كان السائل مؤمناً ارتضى الجواب وإذا كان من غير المؤمنين فإن أحسنهم موقفاً يحترم القرآن، لأنه كتاب المسلمين المقدس وعلى قاعدة فليحترم كل منا مقدسات الآخرين فتكون النتيجة أن احترام فكر المسلم واحترام فكر المجوسي يندرج تحت عنوان حضاري واحد يترسخ يوماً بعد آخر خصوصاً في أروقة الأكاديميات المعاصرة..

من الرجرجة الفكرية السابقة حاولنا أن نعرف أن القصد القرآني الشريف في غياب الشمس أو إدراكها للقمر يرتبط بجاذبية الشمس لا بأشعتها والترابط الفكري الذي استخدمناه لإجبار عقولنا بهذه الضابطة هو أن أشعة الشمس تدرك القمر فكان القصد في جاذبيتها وأن أشعة الشمس لا تغرب بل نحن نغرب عنها فإن الغروب لجاذبيتها.. جهود علمية معاصرة تبحث عن نقطة في الأرض يتعادل فيها قطبا مغناطيس الأرض الشمالي والجنوبي وتلك النقطة إلى يبحث عنها العلماء هي نقطة علمية لا تزال عبارة

عن مشاريع علمية توضع لها المقترحات والخطط منها ما هو معلن ومنها ما هو طي الكتمان ولو أردنا أن نضع الإشارة القرآنية على بساط بحث متخصص سنجد أن غياب الشمس في العين الحمئة يعي تعادل قوى الجذب المغناطيسي لقطبي المغناطيس الشمالي والجنوبي للأرض مع قوى لجذب للشمس على نقطة محدده توصل إليها ذو القرنين وعندما نكون في ساحة علمية مادية معاصرة سنجد أن حركة الأرض المحورية حول نفسها تمنحنا رؤية علمية لمحصلة قوي جذب ثلاثية تتعادل في زمن محدد من اليوم الواحد ونستنبط ذلك من المتن الشريف في (وجدها تغرب) وليس (وجدها غربت)، فعملية الغروب عملية متكررة بشكل يومي والغروب غروب قوى الجذب لا غروب أشعتها كما جاء في المعالجة الفكرية للنص الشريف..

إذا أردنا أن نرسخ هذه الحقائق فإن وعاء ترسيخها لن يكون على سطور كسطورنا بل تحتاج إلى مؤسسة علم متخصص تتعامل مع القرآن كدستور علمي يفرض نفسه في ساحة علمية بوسيلة علمية معاصرة فيكون الانتقال الجهادي الأمثل من التفسير إلى الفهم فيقوم القرآن بيننا لنتشرف بحمله.

إن عملية ترسيخ منهج استقرائي مستنبط من القرآن نفسه غاية قدسية تحتاج إلى رجال عقيدة من نوع متميز يتصف بصفات علمية عقائدية وصفات علمية مادية لتكون طموحات الباحث عن الحقيقة في حيازة المنهج المؤدي إلى بيان القرآن طموحات ممكنة ومشروعة، وذلك من الآية ٤٣ من سورة العنبكوت ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ ولو أردنا أن نعرف (العالمون) فإن العلم المعاصر يعرفهم تعريفاً يختلف عن تعريف علماء العقيدة.. العالمون في العرف العلمي المادي هم الماسكون بالحقائق الثابتة والتي رسخها الفيلسوف (ديكارت) وعد الحقيقة الثابتة حقيقة علمية عندما اشترط العلاقة السببية بين الظاهرة ونتيجتها ورفض أية نتيجة لظاهرة ما لم يقم العالم بإثبات العلاقة السببية بينهما حيث كانت تلك الافكار تشكل اللبنات الفكرية الاولى للنهضة العلمية المعاصرة..

العالم العقائدي يختلف عن العالم المادي لأنه يؤمن بغيب الله ولكنه يدور في

دائرة الكتاب المنزل على المصطفى ﷺ بشقيه القرآن والسنة الشريفة، وهو غير مكلف ببيان العلاقة السببية بين المطلب الشرعي ونتيجته.. الصلاة فريضة والحج فريضة يغنيها العالم العقائدي بحثاً وتحليلاً دون أن يربط العلاقة بين الظاهرة ونتيجتها ربطاً سببياً فالحج في رضا الله والصلاة في طاعة الله ولا يوجد منهج علمي يمسك رضا الله سبحانه وتعالى بيقين مختبري يمكن العالم العقائدي من مشاهدة رضا الله سبحانه وتعالى تحت عدسة المجهر أو على عارضة الحاسب الآلي..

إن العالم العقائدي يفقد صفته العقائدية إذا أراد أن يكون في أروقة العلم المعاصرة ولم يتوصل النشاط الفكري الإنساني المعاصر إلى بناء مسلك فكري يجمع بين العلوم المادية والعلوم العقائدية جمعاً متجانساً له نتاج علمي سواء في التطبيقات الفكرية أو في التطبيقات العملية الميدانية، وإن الإيمان الذي يحمله الأستاذ المحاضر في كلية الطب لا يمكن أن يضيف إلى المادة العلمية سلعة علمية مضافة وأن العلوم التي يحملها الأستاذ المحاضر في كلية الطب لن تمنحه فرصة تزيد من تقويم صلاته أو حجه ونجد ذلك واضحاً في انغلاق البحوث المادية في معرفة كينونة المناسك في الصلاة أو الحج أو الذبح وغيرها، وإن العلماء المعاصرين فيهم رعيل لا يستهان به من حملة الشريعة الإسلامية، سواء كانوا في أروقة علمية في دار الإسلام، أو في أروقة علمية في مواطن صناعة العلم في الغرب، حيث نرى بوضوح بالغ غياب النهج المشترك بين المادية والعقائدية، وأن بعض الأنشطة الفكرية التي يسعى لها بعض العلماء ما هي إلا محاولات فردية غير قادرة على ولادة قاموس علمي مشترك بين علوم المادة وعلوم العقيدة..

إن المؤسسة العلمية التي تقترحها أسطرنا تحتاج إلى بدايات فكرية ولا تحتاج إلى حرم جامعي، بل تحتاج إلى قبول مشترك في البحث عن النهج الإستقرائي المعاصر للقرآن لأن حيازة العلوم القرآنية لا تحتاج إلى صناعة علمية كما يجري في الأروقة الأكاديمية الغربية لأن حيازة العلوم أمر متحصل في علوم القرآن ونحن نحتاج إلى منهج بيانها وعند بيانها ستفرض الحقيقة العلمية نفسها حتى على غير المسلم..

لو عرفت كينونة منسك الذبح الإسلامي وترجم ذلك المنسك العظيم ترجمة علمية محضه فإن البوذي والملحد سوف يقوم بتطبيق المنسك لا لكونه منسكاً إسلامياً بل لكونه حقيقة علمية تفرض نفسها ولو أن الترجمة العلمية شملت المناسك الإسلامية كلها أو أشهرها كمنسك الصلاة أو منسك الحج فإن الدعوة إلى الإسلام لن تكون على لسان خطيب يتحدث ببلاغة أو بفصاحة لسان بل تتحول المواد الإسلامية إلى ثوابت تسري على خلفاء(ديكارت) وبموجب شروطه العلمية..

السطور السابقة تحمل صفات أحلام اليقظة إلا أنها تتحول إلى تطبيقات ميدانية لو انتقلنا من تفسير القرآن إلى فهمه، وبين التفسير والفهم هوة سحيقة لا يسلم الباحث من السقوط فيها، إلا إذا استمسك بالنهج القرآني الذي يحمل البيان وأن أية بطولة فكرية متفردة يقوم بها الباحث لا تزيد الإسلام إلا زيادة رقمية في مواطن الاختلاف ولكن رسوخ النهج المستقرأ من الذكر الحكيم يشكل المعادلة التي تفرض نفسها على محبي الاختلاف وتجبرهم على دخول دائرة الاتحاد الفكري الذي يرفع القرآن الكريم فوق علوم الاعلمين.

إن الباحث عن الحقيقة القرآنية سيجد مصاعب كثيرة ولكنها تصاحب البداية فقط ولن تطول المصاعب على طول مسطحات البحث العلمي للقرآن، وسوف نجد ذلك في معالجة فكرية ليأجوج ومأجوج الوارد ذكرهم في مثل ذي القرنين القرآني.. إن يأجوج ومأجوج في التفسير الروائي هم أقوام مفسدون في الأرض وقد حاربهم ذو القرنين وحاصرهم بسور دخل الحديد في بنائه.. تلك الروايات أفاضت الكثير عن يأجوج ومأجوج حتى أن بعضها يصل إلى حد الخرافة التوراتية.. ورد لفظ يأجوج ومأجوج في موقعين من الذكر الحكيم ففي الآية ٩٤ من سورة الكهف ﴿.. إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ..﴾ والآية ٩٦ من سورة الأنبياء ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ إن المنهج العلمي لاستقراء بيان القرآن لن يكون مستنداً في قيامه على حطام الفكر المضطرب لأنه منهج صارم ولا يمكن لسطور قليلة أن تحدد معالمه أو تصفه أو تمنح المتلقي فرصة التعرف عليه لأنه لا يزال مشروعاً

فكرياً يدعو إلى استنباطه من قبل حملة القرآن، ولكننا في بحثنا الموجز نجبر عقولنا على الخروج من القولبة الفكرية المفروضة علينا ونحاول عبور سقف التفسير إلى قاع الفهم واخترنا مثلاً يأجوج ومأجوج، لأنه يمنحنا مشروعية البناء الفكري على الهشيم المضطرب، الذي تتبناه روايات يأجوج ومأجوج، وهي صعوبة البدايات التي وردت آنفاً ولسوف نرى عبور البداية يعني اندثار المصاعب.. كوكبنا الأرضي أصبح قرية صغيرة كما يقول المعاصرون.. الأرض مغطاة الآن بالدولة الحديثة ولا توجد مساحة من أرض لا تخضع لسلطان الدولة المعاصرة.. المسح الجغرافي غطى بقاع الأرض كلها سواء بوسيلة أرضية وأجهزة مسح تقليدية أو بواسطة التصوير الدقيق لسطح الأرض بواسطة الأقمار الصناعية ولفترة طويلة نسبياً بحيث أصبح من الراسخ أن الأرض اكتشفت بجميع شعابها.

أين يأجوج ومأجوج على خريطة الأرض؟! هذا هو الحطام الفكري الذي يمنح جيلنا مشروعية البحث عن وسيلة معاصرة لفهم القرآن لأننا مجبرون على ذلك غيرة على بقية الله وجهاداً في سبيله بسيف من علم.. إن مثل ذي القرنين القرآني تحدث في الآية ٨٦ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ﴾ وفي الآية ٩٠ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ﴾ وفي الآية ٩٣ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ﴾ المواقع الثلاثة التي بلغها ذو القرنين ارتبطت بالشمس والقوم وهي مغرب الشمس ومطلعها وبين السدين ومع قوم بين السدين كانت الإشارة الشريفة ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا﴾ فكانت شكواهم من يأجوج ومأجوج وفسادهم في الأرض..

المثل القرآني لم يصف لنا عقاباً لأولئك المفسدين في الأرض بل كان في جعل ردم بينهم وبين القوم ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا﴾ والنص القرآني يشير إلى أن الردم كان قد بني بصيغة علمية كانت خافية على القوم وهو من الآية ٩٧ من سورة الكهف ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا﴾ ويؤكد ذلك نص الآية ٩٨ ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ﴾ وهذا الوعد أشار له المتن الشريف في الآية ٩٦ و٩٧ من سورة الأنبياء ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ٩٦ وَٱقۡتَرَبَ

﴿ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

وإذا جمعنا بين ما ورد في سورة الأنبياء وما ورد في سورة الكهف تحت ضابطة من النهج الاستقرائي في أوحدية القصد الشريف سوف نستبعد من عقولنا أنهم قوم محاصرون في بقعة أرضية لأنهم ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾، فيتطابق على طاولتنا البحثية ما هو متسقرأ عن علوم العصر في خلو الأرض من أي أقوام محاصرين ومن فهمنا للمتن الشريف وعلينا أن نبحث عن وسلية توصلنا لفهم يأجوج ومأجوج..

عندما نواجه القرآن بعقولنا سنجد أن يأجوج ومأجوج صفة وليس اسماً لقوم محددين لأن مثل ذي القرنين تحدث عن صفات القوم في مغرب الشمس ومطلع الشمس وبين السدين وإن يأجوج ومأجوج من قوم بين السدين وإن القرآن قد ذكر صفاتهم وليس مسمياتهم.. هذا المسرب الفكري تقبله عقولنا إجبارياً لأن مثل ذي القرنين يتحدث عن حقول طاقوية كما اسلفنا وتلك الحقول حصراً في محصلة قوى الجذب بين الشمس وقطبي الأرض وأن صفة التأجيج تخص الطاقة فمن يؤججها فهو يأجوج ومؤججها فهو مأجوج وأن عملية الفساد في الأرض هي عملية قطع الحقول المغناطيسية وهو ما يجري بشكل دقيق في صناعة الطاقة الكهربائية حيث الطاقة الكهربائية هي نتاج لتقاطع المغناطيس الشمالية والجنوبية..

نحن أمام مفتاح علمي قرآني كبير برغم أن طاولتنا البحثية صغيرة الحجم جداً.. إن مرابطنا الفكرية في هذا الآثار محكمة الربط وترتبط بالصلاة وعقول المصلين ودوران الأرض المحوري، الذي فيه مواقيت الصلاة المرتبطة بمحصلة قوى الجذب الثلاثية المسلطة على أجسادنا في أثناء دوران الأرض اختلاف تلك المحصلة مع اختلاف موقعنا من الشمس على مساحة زمن اليوم الواحد.. ذلك الربط له وشائج فكرية مستقرة غاية الاستقرار مع الوصف القرآني في مثل ذي القرنين لثلاثة مواقع تربط بين الشمس وعقول القوم (مغرب الشمس ومطلعها وبين السدين) المفتاح العلمي القرآني الذي نستحضره على طاولة بحثنا الموجز تشير إلى أن عملية تأجيج الطاقة المغناطيسية

هو فساد في الأرض وهو قول قالته الأروقة العلمية المعاصرة (أيضاً. . إن الإشارة القرآنية الشريفة التي ربطت بين عقول القوم وتلك المواقع المتغيرة طاقوياً تشير إلى أن الفساد يصيب العقل وبما أن العقل غير معروف للعلم المعاصر فإن مؤججي الطاقة الكهربائية (صناع الكهرباء) من كل حدب ينسلون. . إن الرابط الفكري كلما ازدادت شعابه كلما يمنح مسربنا الفكري وجاهة ويقينا ليكون الاستقراء يتصف بصفة اللاريب. .

إن الترابط الحكيم في الوصف القرآني بين يأجوج ومأجوج يثلج قلب المؤمن بالقرآن ويتمسك بدستوريته العلمية ويقاتل من أجلها. . إن صانع الكهرباء (مأجوج) عندما يدير ماكنته (مولد الكهرباء) لن يقطع خطوط المغناطيس برغم دوران ماكنته (عدم وجود تيار كهربائي) ولكن مستهلك الطاقة الكهربائية عندما يشغل أجهزته (يأجوج) يتم قطع خطوط المغناطيس في ماكنة توليد الطاقة الكهربائية. .

إن الترابط بين صانع الكهرباء (مأجوج) ومستهلك الكهرباء (يأجوج) ترابط كينوني حيث يتم قطع خطوط المغناطيس بفعلهما المشترك فإن أدار مأجوج ماكنته بلا يأجوج فإن الفساد في الأرض لا يتحصل والعكس يتطابق أيضاً فإن وجود يأجوج من دون مأجوج فإن الفساد في الأرض لا يتحصل وبهذا الترابط البالغ الحكمة يكون لنا ولأجيال لاحقة عندما يقترب الوعد الحق يأجوج ومأجوج من كل حدب ينسلون سيقول الذين كفروا يا ويلنا إنا كنا في غفلة من هذا ليعترفوا بظلمهم لأنهم يظنون أنهم قادرون على الأرض بعلومهم. .

إن مثل ذي القرنين مثل قرآني وإن صفات القرآن أنه عظيم مجيد حكيم عزيز متفرد لا يستطيع مخلوق أن يأتي بمثله لا ريب فيه تبيان لكل شيء فلا يمكن أن تكون الأمثال المسطورة فيه حكايات للسامرين أو موطناً للاختلاف فإن الأمثال القرآنية أمثال قدسية وردت من الله رحمة بنا ونرى ذلك بوضوح في الآية ٢١ من سورة الحشر ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . . ﴾ لعلنا نتفكر ولعل من تابع هذه الأسطر يتفكر وعلينا ان نبحث عن النهج المنضبط بضوابط القرآن نفسه لكي لا نزيد المختلفات مختلفاً جديداً وإلى لقاء في معالجة فكرية أخرى.